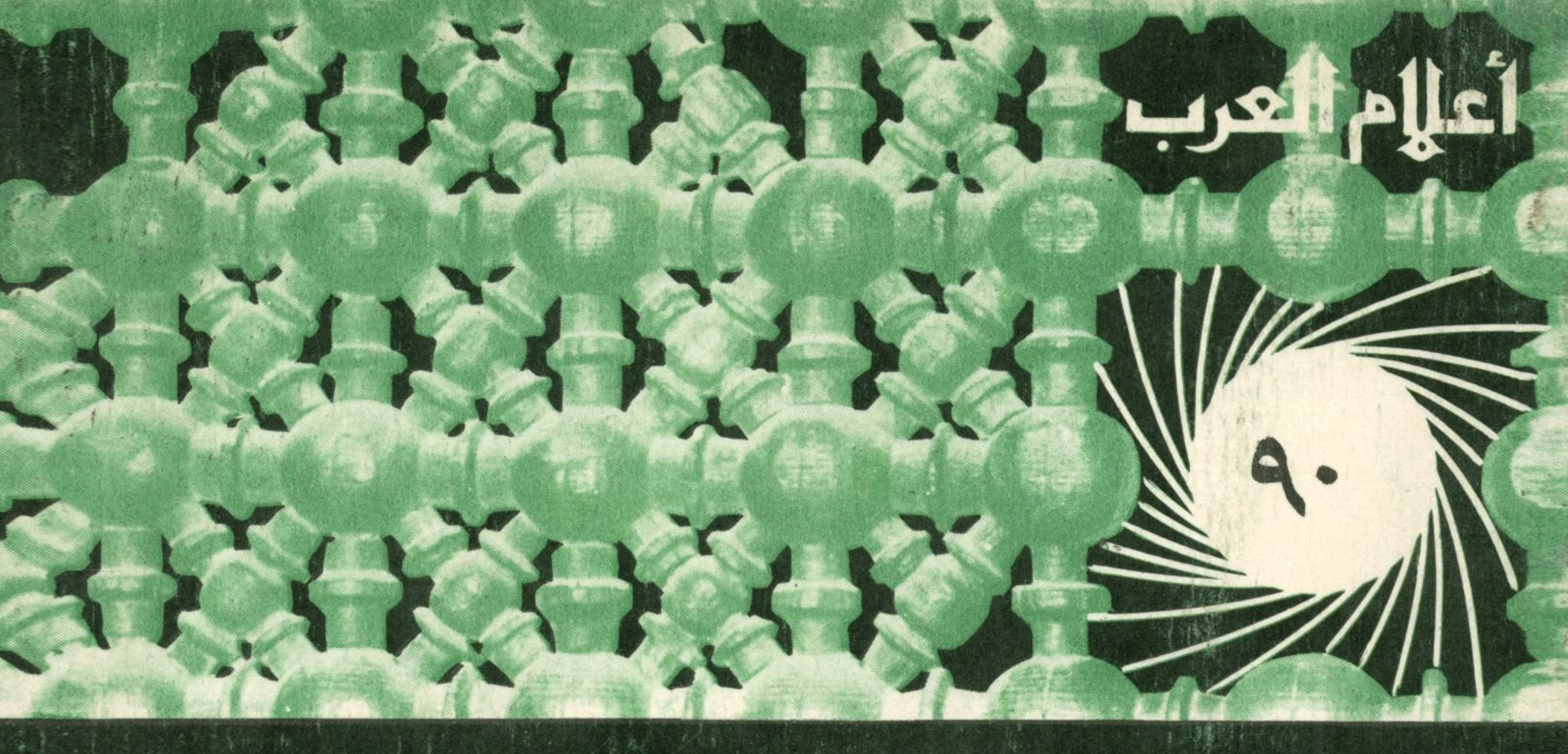


جرجي زيدان

بقلم
محمد عبد الغني حسن

الهيئة
المصرية العامة
للتأليف والنشر

أعلام العرب

جرجي زيدان

بقلم
محمد عبد الغني حسن

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر
١٩٧٠

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدى الكتاب

يدخل جرجي زيدان سلسلة « أعلام العرب » من أبواب فسيحة كثيرة . وكل باب فيها يفتح على مصراعيه ليستقبل الرجل الذى كانت حياته كلها احتسابا لخدمة العرب وتاريخ الاسلام .

فجرجي زيدان عربى بأصله مهما انقسمت العروبة الى أصلين كبيرين من عدنان وقحطان .

وجرجي زيدان عربى بوطنه مهما توزعت العروبة ـ بفعل عوامل كثيرة ـ بين أمصار وبلدان ، ومهما انقسم الوطن العربى الكبير الى عدة أوطان ...

وجرجي زيدان عربي بلغته الشريفة ، لغة القرآن ، التي توحد بين العرب ، وتربط بين قلوبهم جميعا مهما اختلفت بهم الأديان ...

ولقد كتب جرجي زيدان عن العرب لأنهم أهله وقبيله ، وكتب عن العربية لأنها لغته ولسانه ، وكتب عن آداب العرب وأفكارهم ، وعن الاسلام وتمدنه . وكان الرجل حسن النية سليم القصد ، على الرغم مما وجه اليه من انتقاد .

ولجرجي زيدان مكان الرواد في تاريخ العرب ، وتاريخ الحضارة الأسلامية ، والروايات التاريخية، وهي ميادين كلها أبكار، وروضات كلها أنف ، لم يرتدها أحد قبله ، فارتادها الرجل ، وأخذ فيها عن مناهج الغربيين ، وسلك طرائقهم ، ولكنه توسع فيها بما وقع له من مصادر لم تقع لهم ، وقدمها الى قراء العربية في كل أرض تقرأ لغة القرآن ، ونشرها في شعبية واسعة محبوبة بما أتيح له من شعبية مجلة « الهلال » التي أنشأها سنة ١٨٩٢ ، والتي جعلها منبرا لهذه الدراسات الأدبية والتاريخية واللغوية المتخصصة ، فأزال عنها صفة التخصص التي قد تحجب أمثال هذه المباحث عن طلابها والمنتفعين بها . وجعلها قريبة المنال من القراء العرب الذين كانت معداتهم الضعيفة لا تقوى يومئذ على هضم هذه الموضوعات .

وقد جعل الرجل هذه النزعة الشعبية هدف رسالته ، حتى

احتال على تاريخ العرب والأسـلام ، فأراد أن يحببه الى العرب والمسلمين ، وأن يسهل عليهم تناوله ، فكتبه على طريقـة قصصية جذابة ، لا تجور على التـاريخ ولا تطمس حقـائقه من ناحيـة ، ولا تسرف فى التاريخ الى حد الجفاف من ناحية أخرى • وارتضى لهذا الغـرض الشعبى أسـلوبا فريدا ، سـهلا ، واضحا ، مألوف الألفاظ ، بعيدا عن زخرف اللفظ ، وفخـامة العبـارة ، قريبا من البيان والأبلاغ الذى فيه للناس بيان ••

ومن هنا راجت كتب زيدان ومباحثه ودراسـاته المتخصصة رواج رواياته التاريخية المسلية المفيدة • ووجد الناس فيها لعهده شيئا جديدا لم يألفوه ••• فكثر الطلب لها ، والاقبال عليها ، كما دارت حولها المناقشـات والانتقادات ، فلم يحط هذا من قدرها ، ولا ذهب بفضل صاحبها ، بل كان دليل الحيوية فيها، والتقدير لها ، لأن اغفال نقد الكتب هو نوع من الاهمـال ، بل الاهانة لأصحابها

ولقد شغلت نفسى بجرجى زيدان ، أو شغلنى هو ـ زمنـا ليس بالقليل • أقرأ له ، وأفيد من مؤلفاته وآرائه فى تاريخ الأدب العربى والتمدن الاسلامى ، وأجعل كتبه من أهم مصـادرى فيما أعانيه من بحث ، أو أصدره من دراسة • ثم زاد الشغف به الى الشغف بسيرته ، والاشتغال بتاريخ حياته • ففى سيرته نموذج رائع للعصامية التى تقفز بصاحبها من الفقر والحرمان ، الى النباهة ورفعة الشأن •

ومن ثم أخذت أجمع كل ما قيل عنه ، وما لا يزال يقال ، وأخذت أقيم هيكلا لسيرته ، وأرسم مخططا لترجمته وأخذت أجمع المادة الضرورية لذلك ، أملا أن يعيننى الزمان ، وأن تسعفنى الأيام ، بأن أسوى فيه كتابا كاملا .

وما كادت رغبة القائمين على النشر فى « الهيئة العامة للتأليف والنشر » تلتقى مع رغبتى ، حتى أدركت أن يدا من الانصاف الالهى قد امتدت الى هذا الرجل الذى يستحق الانصاف ، بعد أن ضن الزمان به عليه زمانا ...

وأرجو أن يكون اختيارى لهذه المهمة - على ما فيه من تقدير كريم مشكور - فيه تحقيق لبعض الانصاف الذى كنت أرجوه لهذا العالم الرائد .

فاذا أصابنى بعض التوفيق فى هذه السيرة ، فهو فضل من الله يستحق الحمد . وان كانت الأخرى فهو قصور منى يستوجب العذر ...

ويكفينى أننى مهدت السبيل ، وفتقت مسائل للبحث فى سيرة هذا العلم الجليل . والله يهيىء لنا من أمرنا رشدا .

القاهرة

محمد عبد الغنى حسن

الحياة فى سطور

• يمثل جرجى زيدان العصامية بأجلى معانيها ، فهو من أسرة لبنانية رقيقة الحال كادحة كانت تعيش فى قرية « عين عنوب » اللبنانية ، ثم حدثت ظروف اضطرت جدته لأبيه الى الهجرة الى بيروت العاصمة مع بنتيها وابنيها ، وأكبرهم حبيب زيدان ، والد جرجى زيدان •

وكان والد جرجى زيدان أميا ، لم يتسع له السعى فى طلب العيش للذهاب الى المدرسة ، ففتح مطعما صغيرا كان يتردد عليه طائفة من رجال الأدب واللغة وطلاب الكلية الأمريكية التى كانت فى أول عهد انشائها سنة ١٨٦٦ على يد جماعة من المرسلين الأمريكيين •

وفى ظل هذه الظروف المعيشية الضنك ولد جرجى زيدان فى

١٤ ديسمبر « كانون الأول » سنة ١٨٦١ ، ولما بلغ الصبى من العمر خمس سنين أرسله أبوه الى مدرسة متواضعة كان يديرها قسيس يدعى المعلم ألياس شفيق ، ولم يكن هدف الوالد أن يمضى بابنه فى التعليم لغايته حبا للعلم ، ولكن الحاجة هى التى جعلته يدخله المدرسة ليتعلم الكتابة والقراءة والحساب حتى يستطيع أن يساعد والده بادارة المطعم وضبط حساباته • ثم انتقل الى مدرسة الشوام فتعلم فيها الفرنسية ، وتركها بعد ذلك الى مدرسة مسائية يديرها المعلم مسعود الطويل فتعلم فيها الانجليزية •

واضطر الى ترك التعلم بالمدارس ومساعدة والده فى المطعم ، ولكن والدته كانت تكره له العمل فى المطاعم لما فيه من رائحة الزفر والانحباس فى الدكان ليل نهار ، فأذعن الأب لأرادتها مكرها ، فاختاروا له تعلم صناعة الأحذية وكانت سنه يومئذ اثنى عشر عاما فمارسها عامين حتى قارب من أتقانها ، ولكنه تركها لأن ملازمة الجلوس على الكرسى لم تلائم صحته •

وبعد ترداد بين العمل فى المطعم والبيع فى محل للأقمشة كان يقرأ ويطالع الكتب والمجلات ، ويأخذ المعارف بنهم • فعرفه أكثر المتخرجين فى الكلية الأمريكية وأكثر أدباء بيروت ، ورجال الصحافة فيها ، مما سهل له الانتظام فى سلك « جمعية شمس البر » التى أنشئت ببيروت سنة ١٨٦٩ ، وكانت فرعا لجمعية الشبان المسيحيين فى انجلتره • ورأى نفسه فى هذه الجماعة رفيقا لجماعة

من أعلام سورية ولبنان ، منهم الدكتور يعقوب صروف ، والدكتور فارس نمـر ، وسليم البسـتانى ، وبطرس البسـتانى ، ويوسـف الأسير (١) وغيرهم ، وكان هؤلاء يدعونه الى المشاركة بالحضـور فى احتفالات الكلية الأمريكية ـ وخاصة حفلات التخرج ـ فكان يسمع الخطب ، ويخـرج حزينـا لأنه يتمنى أن يقف مثل هـذه المواقف ، ويجد من الحضور اصغاء لما يقول ...

• وفى سنة ١٨٨١ صمم نهائيا على أن يترك العمل ويلتحق بالكلية الأمريكية طالبا فى مدرسة الطب بها ، وكان الدخول بمدرسة الطب يحتاج الى امتحان فى بعض المواد العلمية الأعدادية ، وأشار عليـه بعض أصحـابه بأن الطريق طويل ، والاسـتعداد لامتحان الدخول بالغ الصعوبة ، ولكن ذلك لم يثن عزمه ، ولم يفـل من حد أرادته ، فتعلم مواد الامتحان على أحـد أصـدقائه فيما لا يبلغ ثلاثة أشهر ، ودخل الامتحان فأحرز قصب السبق، ودخل المدرسة الطبية وقضى فيها عاما كاملا • وفى أوائل العـام الثـانى حـدث اضطراب فى مدرسة الطب بسبب تدريس المواد بالعربية بدلا من الأنجليزيـة • وانجلى الحادث عن مغـادرة الطلبـة جميعا وتركهم المدرسة الطبية ، وفيهم المترجم له ، وانصرف الى الامتحان فى علوم

---

(١) الشيخ يوسف الاسير من أعلام اللغة والفقـه فى سـورية ، تعلم فى الازهر ، وقام بالشريعة والافتاء فى سورية ، وتوفى سنة ١٨٨٩ .

الصيدلة ، فامتحنته لجنة خاصة برياسة الكولونيل مراد بك حكيمباشى المعسكر •

• وفى سنة ١٨٨٣ اعتزم الهجرة الى مصر ليتم فيها دراسة الطب ، وكان عيسى باشا حمدى ناظرا لمدرسة الطب المصرية يومئذ ، ولم يكن مع المترجم له من المال ما يكفى نفقات السفر ، فأقرضه جار له ببيروت ستة جنيهات ، على أن يردها اليه حينما ييسر الله عليه •

وفى يوم من أكتوبر سنة ١٨٨٣ وصلت به الباخرة الى ثغر الأسكندرية ، وكان مشهد المدينة محزنا كئيبا بما حدث فيها من آثار الحملة الأنجليزية عقب الثورة العرابية • ولم يمكث بالاسكندرية ألا أياما غادرها الى القاهرة ميمما شطر مدرسة الطب ، ولكن طول مدة الدراسة بها قد صرفه عن عزمه ، فظل يبحث عن عمل ، حتى اشتغل محررا فى صحيفة « الزمان » اليومية التى كان يملكها ويديرها علكسان صرافيان (١) ، وكانت الجريدة اليومية الوحيدة فى القاهرة بعد أن عطل الاحتلال الأنجليزى صحافة ذلك العهد• ومكث صاحبنا فى الزمان عاما وبعض عام •

• وفى سنة ١٨٨٤ رافق الحملة الأنجليزية النيلية الى السودان مترجما لها • وكانت هذه الحملة لأنقاذ غوردون عقب

---

(١) هو أرمنى اشتغل بالصحافة فى مصر ، ثم تركها بعد ذلك الى قبرص

فتنة المهدى • وقد شارك فى المتاعب التى لقيتها الحملة ، ووصف بعضها فى كتابه « تاريخ مصر الحديث » • وكانت مدة رحلته الى السودان عشرة أشهر •

• وفى سنة ١٨٨٥ سافر الى بيروت • وكان المجمع العلمى الشرقى فيها حديث عهد بالأنشاء ، فقد أنشىء سنة ١٨٨٢ للبحث فى العلوم والصناعات والأفادة منهما بما يعود على البلاد بالخير والرخاء • وكان من أول المفكرين فى أنشائه الدكتور يعقوب صروف ، والدكتور فارس نمر ، والدكتور فانديك ، وموصلى باشا ، وانضم اليه بعد ذلك جماعة منهم الدكتور ورتبات ، والدكتور أسكندر بارودى ، وسليم البستانى ، والشيخ ابراهيم اليازجى وغيرهم • فرأوا أن يكرموا جرجى زيدان بتقرير ضمه الى جماعتهم • وفى خلال اقامته ببيروت هذه المرة تعلم اللغتين العبرية والسريانية • وكان من ثمرة هذا أنه ألف كتابه « الفلسفة اللغوية » أو « الألفاظ العربية والفلسفة اللغوية » الذى ظهرت أولى طبعاته فى بيروت سنة ١٨٨٦ • وكان من أثر ذلك أن عينه « المجمع الآسيوى الملكى » عضوا عاملا فيه • وكان هذا التعين تكريما للرجل حينما بعث الى هذا المجمع نسخة من كتاب « الفلسفة اللغوية » الذى بعث بنسخ منه الى المجامع والجمعيات العلمية فى العالم كله •

• وفى سنة ١٨٨٦ زار المترجم له عاصمة بلاد الأنجليز ،

وتردد على المتحف البريطانى وغيره من المكتبات ومجامع العلم • ولما عاد فى شتاء العام نفسه الى مصر طلبت اليه ادارة المقتطف أن يتولى أدارة أعمالها ، ففعل ، وقضى فى المقتطف عاما ونصف عام لم يشترك فى التحرير فيه الا بمقالة صغيرة واحدة هى ختام السنة الحادية عشرة ، ومعنى هذا أن عمله فى مجلة المقتطف كان قاصرا على الأدارة لا التحرير • وقد صححنا وهم القائلين بأنه أشترك فى التحرير ، بناء على ما ذكره الدكتور يعقوب صروف نفسه فى خلال ترجمته لجرجى زيدان عقب وفاته فى عدد سبتمبر سنة ١٩١٤ من مجلة المقتطف (١) •

واستقال من المقتطف سنة ١٨٨٨ ليشتغل بالكتابة والتأليف ، وفى هذه الفترة أصدر كتابه « تاريخ مصر الحديث » •

• وفى سنة ١٨٨٩ انتدبته المدرسة العبيدية الكبرى لتدريس اللغة العربية وآدابها فيها ، وكان مستوى العربية فى هذه المدرسة عاليا ، ولا غرو فقد كان صاحبها روفائيل عبيد السورى من المهتمين باللغة العربية فوق اهتمامه بالطباعة ، وتولى زيدان التدريس فى المدرسة العبيدية لمدة عامين ألف خلالهما رواية « المملوك الشارد »

• وفى سنة ١٨٩١ أنشأ جرجى زيدان مطبعة التأليف مشتركا مع نجيب مترى المؤسس الأول لدار المعارف • وبعد سنة

(١) أنظر دراسة لنا عن كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » فى « تراث الانسانية » المجلد ٤ عدد ١٠ •

انفضت الشركة بينهما ، واحتفظ جرجى زيدان بالمطبعة لنفسه وأسماها مطبعة الهلال ، على حين قام نجيب مترى بأنشاء مطبعة مستقلة باسمه أسماها مطبعة المعارف .

. وفى سنة ١٨٩٢ أصدر مجلة الهلال . وسنتحدث عنها بأسهاب فى فصل قادم . وقد وصفها صاحب « مرآة العصر » بقوله: (وفى شهرة هذه المجلة ما يغنى عن الوصف ، وقد دخلت الآن - يعنى سنة ١٨٩٧ - فى سنتها السادسة ، ونالت من الشهرة وسعة الانتشار ما لم يسبق له مثيل فى العالم العربى ... وقد اشتهر مشربها بالاعتدال ، وانشاؤها بالسهولة والوضوح مع اجتناب الركاكة ، واستمرت لهجتها بالصدق والاخلاص ، وعرف الهلال بحسن الاختيار فى المواضيع على اختلافها) (١) . وكان زيدان يقوم بتحريرها بنفسه ، الى أن كبر ولده « أميل » وصار مساعده فى تحريرها .

ولم يشغل « الهلال » صاحبه عن التأليف المثمر الضخم المفيد . فقد أصدر أكثر مؤلفاته ورواياته التاريخية وهو قائم بتحرير الهلال ، لا تعارض بين الاثنين ، ولا تناقض بين العملين ، فكلاهما متم لصاحبه ، ومات بين أوراقه وكتبه فى دار الهلال ميتة البطل فى الميدان .

وكانت وفاته فى شهر يوليو سنة ١٩١٤ .

---

(١) مرآة العصر : ص ٤٦٢ .

صور من الطفولة والمدرسة

تواكب طفولة جرجى زيدان العقد السابع وشطرا من العقد الثامن من القرن التاسع عشر • وهى طفولة قضاها المترجم له فى لبنان ، أو ان شئت الدقة فى بيروت • ولم يكن لبنان فى ذلك العهد بأسعد حظا من مصر أو بقية البلاد العربية ، فالظروف الاجتماعية هناك وهنا متشابهة • لقد كان والد الطفل جرجى صاحب دكان ، ولكنه كان أميا • فاضطر أن يتعلم كتابة الأعداد حتى يستطيع ضبط حساباته ! أما أسماء المدينين من عملائه فكان يتركها لقريحته ، ثم استعان على ذلك ببعض عمال ممن يلمون بالقراءة والكتابة ، ثم اضطرته الحاجة الى أن يلحق ولده جرجى بمدرسة صغيرة وهو فى الخامسة من عمره ، على أمل أن يساعده •••

ويصور لنا جرجي زيدان فيمذكراته الصريحة (١) الصادقة صورا طريفة من معلمه الأول ، ومدرسته الأولى ، وأداة العقاب التي كانت مستعملة في ذلك العهد ، وهي « الفلقة » التي كانت تتشابه في كل قطر عربي ، بل كان اسمها هناك كاسمها هنا .

وكان التعليم في عهد طفولة زيدان مقصورا على رجال الكنيسة وحدهم كأنما هو احتكار لا مفر منه . وأكثر الكهنة في ذلك الزمان ـ بل كلهم ان شئت الدقة ـ كانوا أشباه متعلمين . وما أظرف جرجي زيدان وهو يصف معلمه الأول « الياس » ـ قسيس الأسرة ـ بأنه لا يكاد يحسن القراءة في الأنجيل :

ولم تكن المدرسة التي تلقى فيها جرجي زيدان دروس الهجاء الأولى شيئا مثل مدارسنا اليوم أو قريبة منها . لقد كانت أبعد ما تكون عن ذلك . ولعل فيها كثيرا من ملامح « الكتاتيب » التي كانت في مدائن مصر وقراها الى عهد غير بعيد ...

وندع المترجم له يصف مدرسته الأولى ويصورها بقلمه قائلا : (وكانت مدرسته ـ يعني المعلم الياس ـ عبارة عن قبو واسع . في بناية ليعقوب ثابت بجوار مدرسة اليسوعيين الآن . ثم صار هذا القبو فرنا بعد ذلك ، فكان أشبه بالزريبة منه بالمدرسة : يجتمع فيه

---

(١) أشار الى هذه المذكرات محرر مادة زيدان في دائرة المعارف الاسلامية ، والاستاذ المرحوم طاهر الطناحي ، ونشر الهلال بعض فصول منها .

أبناء أهل الحي من سن الرابعة الى العاشرة، ذكورا واناثا ، يجلسون على حصير أو حصر بسطها في أرض القبو ، ويجلس هو في صدر القاعة على طراحة ، وبين يديه صندوق صغير « باشتخته » ، يضع عليه كتابه ، ودواته ، وأقلامه ، ويجمع الى يمينه عدة قضبان تختلف طولا ودقة ، يستخدم كلا منها في محله حسب سن الولد وجنسه وبعده منه أو قربه ؟)

ان هذه الصورة الطريفة المضحكة للمعلم ومدرسته في لبنان في القرن الماضي تذكرنا بصورة طريفة أخرى « لسيدنا » وكتابه في مصر، صورها لنا الدكتور طه حسين في كتابه «الأيام» حيث رأى نفسه في ضحى يوم من أيام طفولته في الصعيد جالسا على الأرض بين يدي « سيدنا » ومن حوله طائفة من النعال ، كان يعبث ببعضها، وهو يذكر الرقع التي ألصقت بها من طول ما أبلاها الاستعمال ! وكان « سيدنا » جالسا على دكة من الخشب صغيرة ، ليست بالعالية ولا المنخفضة ، قد وضعت على يمين الداخل ، وقد خلع عباءته وطواها كالمخدة ، ووضعها عن يمينه ، ثم خلع نعله كذلك متربعا على دكة ...

أما القراءة والتسميع فكانت تتشابه هناك في لبنان ، وهنا في مصر ، كما كانت تتشابه في كل بلد عربي . وفي كتاتيب لبنان تقرأ المزامير ، كما يقرأ القرآن في مصر ، والقراءة بصوت عال لا محالة ، وهو ما يسمى « بالتسميع » ، وربما قرأ اثنان أو ثلاثة

من التلاميذ معا في وقت واحـــد ، فتختلط أصـــواتهم ، ويرتفع ضجيجهم ، وكلما اشتد الضجيج انحدر رأس المعلم على صدره من النوم ، وراح مستغرقا فيه . فاذا ما تعب رأسه من طول تدليه ، القى به على الحائط ورفع قدميه على الصندوق ـ أو التختة ـ التي بين يديه . فاذا ما هزته هزة عنيفة استيقظ وفتح عينيه وصاح في برود : اســـكتوا يا أولاد ! فاذا لم يستجيبوا لأمره تحرك فوق طراحته ، وتناول واحدة من العصي أو القضـــبان التي بجانبه ، وضرب بها أقرب الأولاد اليه حتى ولو لم يكن مذنبا ، كأنه ضربات المنايا تخبط خبط عشواء ! فاذا ما صاح المضروب من الوجع ضحك بقية الأولاد ، فيغتاظ المعلم ويتناول عصا ثانية طويلة فيضرب بها تلميذا بعيدا منه. (وقد يهم بالنهوض عند مسيس الحاجة ، ويقبض على المتمرد من الأولاد ويلقيه على الأرض ، ويستعين بخادم أو غلام كبير على وضع الفلقة في قدمي المتمرد ، أو وضع قدميه في الفلق ، ثم يضربه على أخمصـــيه عشر ضربات ، أو عشرين أو أكثـــر أو أقل ، على ما يتراءى له ...) .

ويصور لنا جرجي زيدان الفلقة ، ويرى أن في ذلك تسجيلا لآلة للعقوبة المدرسية زالت من المدن المتمدنة. ولا بأس أن نسجل هنا وصف صاحبنا لها حتى يلم بها الذين لم يروها ، أو لم يذوقوا أوجاعها من شبابنا الجديد ، فوقاهم الله بذلك من عذاب أليم ، يقول مؤرخنا : (والفلق أداة للقصاص ... وهو عبارة عن عصا غليظة

قد شد اليها حبل يتصل طرفاه بطرفيها ، ويبقى وسطه مرخيا ، فيدخلون قدمي الغلام بين الحبل والعصا ، ويديرون العصا ، فيلتف ما زاد من الحبل عليها ، وتنحصر القدمان ، فيرفعونهما والغلام مستلق على ظهره ، فيمسك أحد الحضور طرفى الفلق ، ويأخذ المعلم بالضرب به على الأخمص ...) .

وعجيب جدا أن يفلت جرجي زيدان من عذاب « الفلقة » فلا يقع ضحية لها ، ولا يعرف طعمها ، على كثرة ما شاهد من مآسي استعمالها في المدرسة الأولى . ويتواضع زيدان فيعترف بأن نجاته من شر الفلقة وتجنبه مذاقها لم يكن لفضيلة فيه ! ولكنه كان كثير الخجل ، شديد الخوف من العقاب ، محبا للابتعاد عن أسباب الشحناء . وقد غلبت عليه هذه الصفات منذ طفولته المبكرة ، فكان يبتعد جهد طاقته عن كل ما يثير غضب المعلم عليه أو يبعثه على انتهاره وضربه ...

ان هذا الحياء والخجل ظل ملازما لصاحبنا طول حياته ، وقد حبب اليه كل من اتصل به أو لاقاه من قريب .

وما نزال نذكر في كتاتيبنا شهادة « سيدنا » للأهل والأقارب بأننا قد ختمنا القرآن ، أو حفظنا شطراً منه كبيرا أو صغيرا ، وأن الواحد منا صار « يفك الخط » أي يقرأ في سهولة ويسر . لقد كانت الصورة متشابهة مع مدارس لبنان . فقد قال المعلم لوالد جرجي زيدان : « ان جرجي قد ختم درسه ، وصار يفك

الحرف » . وكان سرور الوالد بذلك فوق كل تقدير . ولا تفوت اللمحة الذكية جرجي زيدان فيعلق على الحادثة بقوله : (ومعنى ختم القراءة أنى صرت أقرأ بالمزامير جيدا ، وهذا صحيح . كنت أقرؤها جيدا ، لكننى لم أكن أفهم ما أقرأ !!) .

والى هنا كان الصبى جـرجى قد تعلم نصف القضية ، وفاته نصفها الآخر ! لقد تعلم القراءة ، ولكنه لم يتعلم الكتابة والحساب والعـدد . انه قارىء معطل ؟ يقـرأ ، وقد لا يفهم ما يقرؤه ، ثم لا يدرى بعد ذلك من أمور الكتابة والحساب شيئا ! فماذا يصنع به والده فى الدكان ؟ انه لا غناء فيه ، ولا فائدة منه ! انه لا يستطيع ولا يعرف أن يقيد أسماء العملاء ، ولا يعرف أن يقيد أمام أسمائهم ما على كل واحد منهم من ديون . فاضطر أبوه الى نقله بمدرسة كانت قد افتتحت حديثـا ببيروت تعرف « بمدرسـة الشوام » . والشوام ـ كما هو العرف هناك ـ هم أهل دمشق . وكان مؤسسو هذه المدرسة الجديدة جماعة من أدباء دمشق ، نزحوا الى بيروت لينشروا فيها العلم ! ويعترف صاحبنـا بأنه فى هذه المدرسـة تعلم مبادىء الحساب ، والنحو ، وبدأ يفهم ، وتفتحت عينه على الحياة .

وعلى حين كانت الفوضى والعقاب وسوء المكان تسود مدرسة المعلم الياس ، كان النظام والحزم وصرامة القوانين تسود « مدرسة الشوام » . ولم يكن هناك قانون كما يتبـادر الى الذهن ، ولكنها ارادة النـاظر أو كبير المعلمين الذى كان اسـمه « ظاهر خير الله

الشويرى » (وكان شديد اللهجة ، عظيم الهيبة ، وأصله بناء ، وفيه ذكاء فتعلم وتثقف على نفسه ، وصار معلما براتب حسن ، وكان التلامذة يهابونه ويخافون صوته) • وظاهر خير الله هذا هو والد اللغوى الشاعر الناقد أمين ظاهر خير الله الذى كان يكتب فى المقتطف ، والعرفان ، والمسرة ، ودارت بينه وبين الأب أنستاس مارى الكرملى مجادلات لغوية شديدة نشرها فى كتابه « البرهان الجلى ، على علم الأب الكرملى » • على أن الأب نفسه الذى كان بناء ، فمعلما ، اشتغل باللغة والنحو والصرف فبرع فيها ، وله كتاب « المباحث المحصفات ، فى أحوال الصفات » وهو أوسع مؤلف فى بحث أحوال الصفات فى اللغة العربية •

ولما ترك المعلم ظاهر نظارة مدرسة الشوام وأنشأ لنفسه مدرسة خاصة ترك جرجى زيدان مدرسة الشوام ، والتحق بمدرسة معلمه الذى كان شديد العناية بالتعليم ، وكانت تعلم اللغة العربية والفرنسية ـ فوق الاهتمام بدروس الحساب ـ فقضى صاحبنا فيها سنتين أخذ فى نهايتهما يلتذ بالعلم ويتفهمه ، ولم يكن له هم غيره•

ولقد جمع زيدان فى طفولته وصباه بالمدارس الثلاث التى تنقل فيها ، الى الخجل والحياء اللذين لازماه ، نفورا من اللعب ومشاركة التلاميذ فى مناشطهم البدنية ، لأنه ـ كما يقول ـ لم يكن ميالا الى اللهو مطلقا ، وكان يعد ذلك نقصا فيه ، ولكنه لم يستطع أن يتغلب عليه • فلم يكن يصنع « الطيارة » من الورق بيديه

ويطيرها بالخيط المتين الى آفاق بعيدة فى الجـواء ، ولم يكن يلعب الـكرة ، ولا « البلى » الا نادرا ، ويكتفى من المشـاركة فى اللعب بمرافقة التلاميذ اذا خرجوا لتطيير طيارة ورقية كبيرة، فكان يجتمع اليها أبناء الحى ، فيتبعهم مشاهدا ، معجبا بشجاعتهم ، ومهارتهم فى صنع الطيارة وتطيرها ...

كانت نهاية المطاف بالمدارس عند جـرجى زيدان عندما أتم عامين من التعليم فى مدرسة ظاهر خير الله ، وكانت سنه يومئذ أحد عشر عاما ، وفتحت له المدرسة آمالا للمستقبل ، ولكن والده كان ينتظره بقارغ الصبر ليساعده فى تقييد الحسابات بدكانه أو مطعمه. وترك مستخدم المطعم عمله ، فاضطر الوالد الى أن يدعو ولده ليحل محله لبضـعة أيام حتى يظفر بمستخدم جـديد . وأطاع الابن الخجول الطموح ، ولكن الأيام السبعة طالت حتى بلغت سبعة أعوام قضاها الفتى فى مطعم أبيه . وكان فى الأم فطنة وجزع على مستقبل ولدهـا ، فما برحت تطالب الأب بأن يخلى بين الابن والمطعم حتى يعود الى طلب العلم ثانية ، وظلت تلح على الوالد ، والوالد يسرف فى الوعود ... ثم صارحهـا بقـوله : ان الفتى قد أتم تعليمـه ، ولا فائدة من كثرة الدروس الا اذا كنت تنوين أن تجعليه كاتبا أو معلما ... فضلا عن أن كثرة التعليم تجعله متفرنجا يأكل بالشوكة والسكين ! وربما حدثته نفسه فلبس الزى الأوربى !

لقد كان الوالد شديد المحافظة على التقاليد والعادات الشرقية،

فأقنع أم صاحبنا بوجهة نظره ، حتى رضيت بأن يدخل ابنها فى صناعة أخرى غير صناعة المطاعم التى كانت تكرهها ! وأخيرا قر رأيها على أن يتعلم ابنهما صناعة الأحذية ! فتعلمها ومكث فيها سنتين ، وهو صابر ؛ ولم لا يصبر حتى يجعل الله له مخرجا ؟ ألم يكن معلمه ظاهر خير الله بناء فصار بعد من أنبه المعلمين ؟

ترك صاحبنا صناعة الأحذية لأنها لم توافق صحته ، فاضطر والده الى اعادته الى المطعم الى أن تتهيأ له صناعة أخرى تؤمن مستقبله ! وفى المطعم هذه المرة التقى الفتى بالمعلم مسعود الطويل، وكان صاحب مدرسة تعلم الانجليزية للشبان ساعة الغروب . فتردد عليها مع أربعة عشر زميلا ، وكان فى الخامسة عشرة من عمره ؛ وكان أجر المدرسة وجبات من الطعام يتناولها المعلم فى المطعم ! وقسا صاحبنا على نفسه فى تعلم الأنجليزية ، حتى كان يقضى الليالى ساهرا فى الحفظ والدرس ، الى أن قويت فيه الملكة ، وتمكن من اللغة الى حد أخذ معه يشتغل بوضع معجم انجليزى عربى ! وبلغ فيه حرف « E » ـ أى خامس حرف من حروف الهجاء الأنجليزية ؛ ولكنه توقف عن العمل لقلة جدواه ، وضعف وسائله . واقتنع بالقراءة حتى يزيد من حصيلته ...

العصامية وسر النجاح

حين عهدت احدى مؤسسات النشر الأجنبية الى المرحوم محمد فريد أبو حديد أن يترجم كتابا يتناول سير جماعة من الفقراء الذين أصبحوا من المشهورين ، رأى ـ رحمه الله ـ أن يضم الى الكتاب كتابا يتناول سير جماعة من الشرقيين العرب الذين وصلوا الى الشهرة بعد كفاح طويل مع الأيام ، فكان من هؤلاء المكافحين على باشا مبارك ، وجرجى زيدان ، والدكتور على ابراهيم ، وعبده الحامولى ، وسعد زغلول وغيرهم ٠

والحق أن وضع جرجى زيدان بين العصاميين هو وضع للشىء فى مكانه الصحيح ، فان العصامية تتجلى فى هذا الرجل بأجلى بيان٠ انه لم يكن من أسرة غنية ، ولا من أسرة من تلك الأسر التى أعطتها المواضعات الاجتماعية نوعا من التميز والاستعلاء ٠ فما عرف

عن أسرته الا أن والده « حبيب » كان صاحب مطعم صغير يديره في ساحة البرج بالعاصمة اللبنانية • ولقد ولد الطفل جرجى زيدان في بيروت وشهد بعينيه في طفولته هذا المطعم الصغير ، وشهد والده وهو يدير هذا المطعم في جو من الكفاح والتعب لا مثيل له • لقد كان الأب يخرج من بيته المتواضع الى دكانه المتواضع في ساعة الفجر ، وأكثر الناس هائمون بالمنام اللذيذ ، فيظل فيه بين عمل واشراف وتردد على المطبخ ، ومقابلة للعملاء ، حتى ينتصف الليل، فيغلق مطعمه ، ويروح الى بيته مكدود القوى ، منهك الجسم ، فيجد الزوجة تقابله بعد عمل شاق في المنزل ، فيلتقى المكدودان ، بينما الصغار قد ذهبوا قبل ذلك بساعات الى عالم الأحلام •

ويصور لنا جرجى زيدان هذه الدورة القاسية من الحياة بقوله : (••• وقد شببت على ذلك وألفته ، فغرس في ذهنى أن الانسان خلق ليشتغل ، وأن الجلوس بلا عمل عيب كبير •• بخلاف الأبناء الذين يفتحون أعينهم على والدين يقضون معظم أيامهم في اللهو وشم الهواء ، ولا يهمهم الا ماذا يأكلون ، وماذا يشربون • واذا ما فرغوا من الطعام عمدوا الى اللعب بالورق أو غيره ، ولا يقدمون على العمل الا مكرهين ، يحسبون العمل عيبا أو تعبا • ولو عولوا عليه لكفاهم مئونة المرض والضعف •••) •

وكان والد صاحبنا محتاجا الى معاونته له في العمل ، وخاصة انه كان أميا لا يقرأ ولا يكتب • وما أدخله المدرسة حبا للعلم أو

رغبة فى تحصيله ، ولكنه رام من وراء ذلك أن يجد فى الطفل معينا له على تقييد أسماء العملاء وتدوين حساباتهم ، حتى لا تبوء تجارة المطعم بالخسران ، وحتى لا يضطر الى استخدام كاتب بالأجـر ، وفى ابنه غناء عن استخدام شخص غريب ...

وكأنما قدر على الطفل جرجى زيدان أن يذوق طعم الكدح فى الحياة وهو فى الخامسة من عمره ، فهو يذهب الى المدرسة ويرجع الى مطعم أبيه ليرى بعينه صـورة الكفاح المجسم فى والده الدءوب الكادح ...

ولم يجد صاحبنا فى الفقر عيبا ولا عارا ، ولا معوقا عن الجهاد فى الحيـاة ، بل على الضـد من ذلك وجد فيه محرضا على العمل ، ودافعا قويا الى النضال . انه لم ييأس ، ولم يرض بأدنى ما ينـال والده من الرزق ، ولم يكن راضيا عن العمل الذى يعمله والده. انه كان يتطلع الى آماد أبعد ، وآفاق أوسع ، وغايات أسمى . وكان ينظر الى الشبان الذين أتيحت لهم فرص التعلم فى مدارس المرسلين الأجانب وكلياتهم ، فيتمنى لو سـاعفته الأقدار بأن يتـاح له مثل ما أتيح لهم . وطالما تمنى على الله أن يسعده الحظ بالالتحاق فقط فى واحدة من هذه المدارس ، وعليه بعد ذلك أن يمضى باجتهاده الى نهاية الطريق . ولكن أنى له أن يدخل هذا المدخل المشتهى وأبوه متشبث به ، مدخر له فى المطعم ، لا يسمح له من التعليم الا بالقدر الذى يجعل منه مساعدا له فى الدكان ؟

كان الفتي يجد فى الفقر ألف حافز وحافز على بلوغ الآمال. وما وجد نافذة ينفتح منها ولو شعاع أمل ضئيل الا فتحها وأطل منها على أمل جديد . ألم يستطع أن يوفق بين عمله فى المطعم وبين تعلم اللغة الانجليزية فى مدرسة مسائية يديرها المعلم مسعود الطويل ؟ ألم يقض فى هذه المدرسة خمسة أشهر دائمة الدرس حتى استطاع أن يحصل من الأنجليزية ما لا يحصله غيره فى سنين؟ ألم يقرأ « رحلة كوك فى المحيط » ليختبر مقدرته فى هذا اللسان الجديد فوجد نفسه دون ما كان يريد . فلم يزل يواصل الدرس والسهر حتى عزم على تأليف معجم انجليزى عربى ؟ ان مؤلف كتاب « مرآة العصر » يروى لنا قصة هذه الارادة ، وكأنه يضعها مثالا للذين يريدون النجاح فى الحياة .

وكفاح المترجم له ومغالبته الأيام يتجلى فى كفاحه فى سبيل العلم الذى علق عليه أكبر الآمال فى تخطيط مستقبله الجديد . لقد كافح فى سبيل لقمة العيش ، وكافح فوق ذلك فى سبيل التعلم ، ولم يتناقض الكفاحان أو يتلاقيا على أطراف النقيض ... بل تلاقيا كأحسن ما يكون اللقاء بين الأطراف .

وما كان كفاحه فى سبيل تعلم الأنجليزية الا مقدمة وتمهيدا لكفاحه فى سبيل عدد وافر من اللغات . ففى سنة ١٨٨٥ حينما بدأت الدنيا تتفتح أمام عينيه انتدب عضوا فى المجمع العلمى الشرقى الذى أنشىء فى بيروت سنة ١٨٨٢ ، والذى كان ثمرة من ثمرات

تفكير الدكتور يعقوب صروف ، والدكتور فارس نمر ، والمستشرق فانديك ، والذى كان من أعضائه الشيخ ابراهيم اليازجى، وابراهيم الحورانى ، وسليم بطرس البستانى ، والدكتور ورتبات ، ومراد البارودى • فرأى أن يتزود لعضوية هذا المجمع ببعض اللغات السامية ، فتعلم العبرانية والسريانية وأخواتهما ، وأتقنها كلها فى أقل من عام •

ولقد كان التصميم المسدد ، والأرادة القوية سبيل المترجم له الى تحقيق الغايات ، ففى سنة ١٨٨١ ، وكانت سنه اذ ذاك عشرين عاما ، صمم على الالتحاق بالمدرسة الكلية الأمريكية ـ التى عرفت فيما بعد باسم الجامعة الأمريكية ببيروت ـ ليدرس الطب • وكانت مواد امتحان القبول فى هذه الكلية تشتمل على الحساب والجبر والهندسة وعلوم الطبيعة واللغة العربية والأنجليزية • أما اللغتان فأمرهما ميسور ، واتقانهما حاضر موفور • ولكن المشكلة فى المواد الأربع التى لم يكن يلم بها الماما يهيىء له النجاح فى امتحان القبول• وهنا يتجلى التصميم والارادة من جديد ، فانتهز عطلة الصيف قبل أن يعقد الامتحان ، ووصل الليل بالنهار فى درس هذه المواد حتى دخل الامتحان وكان فى طليعة الناجحين ، وأصبح منذ ذلك اليوم طالب طب فى المدرسة الكلية الأمريكية • وان كان لم يتم التعليم فى مدرسة الطب فانما كان ذلك بسبب من الأسباب القاهرة التى ليست من كسب المرء ولا من صنع يديه •

والتصميم المسدد والارادة القوية فى النجاح كان يظاهرهما عند جرجى زيدان اهتمام دائب بمعرفة أسباب النجاح عند الناجحين فى الحياة • فهو يعرف بالخبرة الملموسة القريبة أن معلمه « ظاهر خير الله » اللنوى الناجح كان فى أول أمره بناء يشد الجدران ، ويقيم الحيطان ، ويحكم البنيان • فما زال يتوصل بالعلم حتى صار عالما ملحوظ المكان •

وهو يعلم من قراءاته سير أناس نجحوا فى الحياة بعد فقر ، وارتفعوا بعد خمول ، وصاروا من « المشاهير » بعد أن كانوا من المناكير •

ووقع فى يد الطفل جرجى زيدان كتاب «سر النجاح» للكاتب الانجليزى صموئيل سمايلز ، وقد ترجمه الدكتور يعقوب صروف الى العربية باشارة من الدكتور فان ديك المستشرق المشهور • ورأى صاحبنا فى الكتاب صورا من الاعتماد على النفس ، والمثابرة والثبات ! وقرأ فيه سير جماعة من رجال الأعمال والمال والفنون صنعوا حظوظهم بأيديهم بعد معاكسات من الأقدار • وأضاف «صروف» الى الكتاب سير جماعة من الشرقيين رأى أن يستكمل بهم صور النجاح ما بين مشرق ومغرب من أمثال العلامة بطرس البستانى ، والدكتور فان ديك ، ومحمود باشا الفلكى •

وخرج الفتى جرجى من قراءته الدائمة لهذا الكتاب بايمان قوى ، وأمل متفتح للحياة • وكانت تستهوى الفتى صور الناجحين،

وظلت منطبعة فى ذهنه الى أن أتيح له يوما ما أن يؤلف كتابه المشهور « تراجم مشاهير الشرق فى القرن التاسع عشر » ، وقد صدرت طبعته الأولى سنة ١٩٠٢ ، فجمع فى كتابه طائفة من العصاميين الذين غالبوا الظروف حتى تغلبوا عليها ، واستولوا على الأمد بما اجتمع فيهم من وسائل الكفاح للنجاح .

ووضع زيدان نصب عينيه فى مؤلفه عن تراجم مشاهير الشرق أن يبرز بوضوح قساوة ظروفهم ، وأسباب نجاحهم ، حتى يكون القارىء منها دائما على ذكر لا يصيبه اغفال .

ففى ترجمته لسليم صيدناوى شقيق سمعان صيدناوى اللذين اشتهرا بادارة أكبر محل تجارى فى مصر ، خص جزءا من الترجمة بكتابة فصل عن شروط النجاح ، جعل منها المعرفة ، وحسن الاختبار ، والثبات ، والاستقامة ، والاجتهاد ، ومراقبة الفرص ، وأسلوب المعاملة . ولم يكتف بهذا الفصل بل أتبعه بفصل آخر عنوانه « أساس النجاح » عالج فيه أسبابا أخرى تتصل بالأمانة والاستقامة ومعرفة الأسواق ، وكأنه جعل هذا الفصل تطبيقا عمليا من سليم صيدناوى للشروط التى وضعها للنجاح .

ومن الناس من يلقون ستارا من النسيان على ماضيهم اذا كان مكللا بضباب الفقر والحرمان ، فهم يفرون من هذا الماضى ولا يحاولون اظهاره أو الاشارة اليه بحال ... ولكن جرجى

زيدان لم يجد أن يحجب ماضيه بحجاب • بل رأى أن ينشر أشد مافيه ، وأقسى مافيه لعل فى ذلك عبرة لمن أراد أن يعتبر • وكان ذلك منه ايمانا بأن الفقر ليس فيه ما يعاب ، ولكن العيب أن يتخاذل المرء وبين يديه أسباب النجاح ، ولهذا نجد فى مذكرات جرجى زيدان كثيرا من المصارحات التى يضن بالافضاء بها كثير من الناس، انه يتحدث فى مذكراته عن فقره ، وعن كدحه ، وعن المهن المتواضعة التى امتهنها ما بين صانع أحذية ، وبائع صغير فى متجر يملكه تاجر للأقمشة ، ومساعد لوالده فى مطعم صغير متواضع ببيروت •

ولم تكن الأيام فى أيام جرجى زيدان الأولى سخية عليه بالعطاء • فكأنما كان ينتزع الرزق من بطون الأساود • ولقد بلغ به الأمر أنه حينما اعتزم الهجرة الى مصر سنة ١٨٨٣ لم يكن معه من النقود ما يسد به نفقات الرحلة ، فاقترض من أحد جيرانه الطيبين ببيروت ستة من الجنيهات • وقد أخذها من الجار على أن يردها اليه حينما يمن الله عليه بالايسار بعد الاعسار ، لا على أن يأكلها كما يفعل بعض المقترضين ••• ولم يمض عام واحد على مقام المترجم له فى القاهرة وتأمين العمل له حتى بعث الى جاره البيروتى يرد له الدين مقرونا بالشكران والعرفان •

وهذه حادثة لم يكتمها جرجى زيدان وهو يكتب مذكراته ، بل سجلها كما سجل كثيرا غيرها من أعجب الحادثات •

لقد كان جرجى زيدان نمطا عاليا رفيعا من الأنماط الانسانية المثابرة فى الحياة • وكان المجد العلمى والأدبى الذى بلغه جزاء وفاقا للجهد العظيم والكفاح الجسيم الذى بذله • فكان بحق أكرم صورة للتعويض عن معاكسة الحظوظ ومضايقة الأقدار • ويقتضى المقام هنا أن نستحضر قول المرحوم الأستاذ محمد فريد أبو حديد وهو يقدم لكتاب « عصاميون عظماء من الشرق والغرب » الذى كان جرجى زيدان أحد المترجم لهم فيه : (••• فالنجاح والخذلان ، والمقدرة والعجز تسير جنبا الى جنب منذ بدء الحياة • والفرق بين حالى السمو والاسفاف ينشأ من قلوب الناس أنفسهم ، لأنهم هم الذين يصنعون مصائرهم بأيديهم عندما يختارون طريقهم فى الحياة، ويحددون لأنفسهم غايتها ووسائلها) •

رحلات ومشاهدات

كان جرجى زيدان ـ صاحب مجلة الهــلال ـ مثل الهــلال السـماوى فى تنقله ودورانه . فلم يكن يحب الالتصـــاق بأرض لا يبرحها الى غيرها من بلاد الله ، ولكنه أعطى نفسه من الترحال والتجوال ما سمحت له به ساعات الفراغ .

ولقد تنوعت رحلات زيدان وأسفاره بين الهجرة ، والعمل ، والمتعة ، ولكنه كان فى رحلات النزهة والمتعة يستخرج منها أقصى ما يمكنه الحصول عليه من منفعة للعلم والمعرفة ، والمصادر والوثائق والمخطوطات ، والطباعة ومدى ما وصلت اليه فى أحدث تطوراتها.

ولقد قدر للفتى القابع فى حى متواضع من أحياء بيروت أن يركب البحر لأول مرة فى حياته حينما استقل فى شــهر اكتوبر

سنة ١٨٨٣ باخرة تجارية تحمله الى مصر • وكان ذلك أول عهد الفتى بالأسفار ، والبعد عن الديار • وكانت تلك الرحلة للهجرة لعل الفتى يجرب فيها حظه مع المهاجرين السوريين الذين كانوا فى ذلك العهد يرحلون عن البلاد فرارا من ظلم الأتراك ، وطلبا للرزق فى أرض الله الواسعة •

وشاء الله أن يدخل زيدان ثغر الأسكندرية فىأعقاب ما أصابها من حرائق ، وما نكبت به من تدمير بفعل جيوش الاحتلال البريطانى • فكانت تجلل جو ذلك الثغر الباسم سحابة من الكآبة والحزن العميق •

ولم يطل بصاحبنا المقام فى القاهرة محررا فى صحيفة «الزمان» كما سبق القول ، فاذا بالانجليز يرسلون حملة نيلية الى السودان لانقاذ غوردون ، وكانت تتألف من ستة آلاف جندى كما يروى جرجى زيدان فى كتابه « تاريخ مصر الحديث » ، وكان أكثر قوادها من طبقة الأشراف والنبلاء فى انجلتره ، فقد تسابق اليها القوم لزعمهم أنها (عبارة عن فسحة على النيل) • واختير جرجى زيدان بوصفه مترجما مرافقا لتلك الحملة التى سافرت فى سنة ١٨٨٤ ، وقد أشار كراتشكوفسكى الى مشاركة زيدان فى تلك الحملة النيلية وأوجز الخبر فى سطرين اثنين من بحثه فى دائرة المعارف الاسلامية ، كما أشير اليها فى الترجمة التى نشرت فى ذيل الجزء الرابع من كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » • ولم تخل من

أشارة اليها أيضا فى الترجمة المطولة التى نشرت فى عدد اكتوبر من مجلة الهلال سنة ١٩١٤ ، وهو أول عدد صدر من هذه المجلة بعد وفاة صاحبها • ولعل أطول اشارة اليها هى ما جاءت فى كتاب « مرآة العصر » لألياس زخورة حيث يقول : (••• حتى كانت الحملة النيلية الى السودان سنة ١٨٨٤ لأنقاذ غوردون باشا ، فسار برفقتها مترجما بقلم المخابرات ، وترك صناعة القلم مؤقتا رغبة منه فى استطلاع أحوال تلك البلاد ، فقضى فيها نحو عشرة أشهر ، فشهد أعظم الوقائع الحربية مثل واقعة أبى طليح والمتمة وغيرهما ، ولا تسأل عما قاساه من الأهوال فى تلك السفرة ، فقد رأى مواقع الحرب رأى العين ، تحت اطلاق المدافع ووزوزة القنابل ، وشاهد القتلى مئات وألوفا ، الى أن عاد بعود الحملة بعد مضى عشرة أشهر ، فنال مكافأة المدالية الأنكليزية ، والنجمة المصرية ، والعروة المختصة بواقعة أبى طليح) •

وقد أمدت هذه الرحلة الرسمية جرجى زيدان بمصدر من المعارف والمعلومات حين دون الفصل الخاص بثورة المهدى بالسودان فى كتابه « تاريخ مصر الحديث » ، فهو فى هذا الفصل يكتب عن معاينته للحوادث ، ومعايشته للوقائع ، فيقول : (وكنت ممن سار برفقة حملة العطمور ، فشهدنا وقائعها ، وسمعنا اطلاق مدافعها ، ورنات قنابلها ورصاصها) ثم يتابع الرواية بعد قليل فيقول : (وقد كنت فى جملتهم فى تلك الليلة الليلاء ، فكنا سائرين لا نرى شيئا

من آثار الطريق المؤدى الى المكان المقصود لشدة الظلام ، فاضطررنا الى الاستدلال عليها بالأبرة المغنطيسية والنجم القطبى . وكنا تارة نصعد على آكام متلمسين ، وطورا تعثر أرجل جمالنا بأعشاب أو أنجم شوكية، ولم نكن نخرج صوتا ولا نقدح نارا لئلا يكون بقربنا من الأعداء من يستطلع أحوالنا فيحبط مقاصدنا ...)

وفى سنة ١٨٨٥ ـ وبعد عودته من حملة السودان بقليل عاد الى بيروت . ولا ندرى ماذا كانت أهداف رحلته هذه أو زيارته لموطنه . ولكنا نعلم أن « المجمع العلمى الشرقى » اختاره ليكون عضوا من أعضائه ، وقد سبق الحديث عن هذا المجمع فى فصل سابق وفى هذه الرحلة أقام ببيروت عشرة أشهر يبحث ويدرس ، فتعلم العبرية والسريانية .

وفى صيف سنة ١٨٨٦ وجه زيدان همه للسفر الى لندن ، ولا نعلم الغرض الحقيقى من رحلته هذه ، ولكن المرحوم طاهر الطناحى يقرر فى كتاب « عصاميون عظماء » أنه تردد على أندية العلم فيها وزار المتحف البريطانى . على أن المستشرق كراتشكوفسكى قد أوجز الأشارة الى هذه الرحلة ، ولكنه لم يوضح لنا ما فعله فيها ، على حين أن صاحب « مرآة العصر » يقرر أنه (كان فى أثناء اقامته هناك يتردد على أندية العلم ومجتمعات الآثار ، وخصوصا المتحف البريطانى الشهير) . ويخيل الينا أنه كان فى خلال ذلك العمر المبكر ـ حيث كانت سنه يومئذ خمسة وعشرين عاما ـ يجمع

المواد الأولية لمشروعات كتبه فى آداب اللغة العربية وتاريخ التمدن الاسلامى ، وان كان حتى ذلك الحين لم يعان التأليف ، ولم يشتغل بالتصنيف ، الا ما كان من كتابه الأول : « الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية » الذى كان باكورة انتاجه فى المكتبة العربية •

ولم تكد الأحوال تستقر فى الدولـة العثمـانية بعد الانقلاب العثمانى سنه ١٩٠٨ وخلع السلطان عبد الحميد واعلان الدستور حتى عزم جرجى زيدان على زيارة تركيا • فشد اليها الرحال فى سنة ١٩٠٨• ويشير كراتشكوفسكى الىهذه الرحلة اشارة سريعة•

ويشير الأستاذ أنيس المقدسى فى كتابه « الاتجاهات الأدبية فى العالم العربى الحديث » الى زيارة جرجى زيدان لسـورية ولبنان سنة ١٩١٠ ، وهى زيارة تمخض عنها مقال فى السنة التاسعة عشرة من مجلة الهلال ، ينصح فيه صاحبنا جماعة المتشائمين من العرب بعدم اساءة الظن بالحكومة الدستورية فى تركيا ، والصبر على وعود الحكومة بالاصلاح حتى تتمكن من تحقيق ما وعدت به •

وفى سنة ١٩١٢ نرى أن جرجى زيدان قد شد الرحال الى أوربا فى زيارة طويلة ، والى هذه الرحلة أشار محرر مقال « دائرة المعارف الاسلامية » اشارة عابرة • ولعلها هى الاشارة الوحيدة التى جاءت فى كتاب من الكتب التى ألمت بسيرة المترجم له • وقد نشرت فصـول من هـذه الرحلة فى أعـداد من مجلة الهلال ، على عادة زيدان • ولكن دار الهلال قد نشرت هذه الرحلة كاملة فى كتاب

عنوانه « رحلة جرجي زيدان الى أوربا سنة ١٩١٢ ». وهذا الكتاب من منشورات دار الهلال سنة ١٩٢٣ ، أى بعد تسع سنوات من وفاة صاحب الهلال . وقد مهد زيدان لهذه الرحلة بتمهيد يقول فيه :
(قضينا صيف هذا العام فى أوربا بين فرنسا وانكلترا وسويسرا ، وتنقلنا فى أهم مدائنها ، فزرنا مرسيليا ، وليون ، وباريس ، ولندن، وكمبريدج ، ومنشستر ، وأوكسفورد ، وجنيف ، ولوزان ، وأفيان ، ودرسنا أحوالها ، وتفقدنا متاحفها ومكاتبها ـ يعنى مكتباتها ـ وآثارها . وتوخينا النظر على الخصوص فيما يهم قراء العربية من أحوال تلك المدنية التى أخذنا فى تقليدها من قرن كامل ، ونحن نتخبط فى اختيار ما يلائم أحوالنا منها ... ونقتصر من ذلك على ما يهم القارىء الشرقى ، من حيث حاجته الى تحدى مدنية أولئك القوم فى نهضته هذه ، ونبين ما يحسن أو يقبح من عوامل تلك المدنية ، بالنظر الى طبائعنا وعاداتنا وأخلاقنا . وسنغفل سياق الرحلة، فلا نذكر رحيلنا أو نزولنا ، وما لاقيناه أو كابدناه فى أثناء ذلك ، على ما جرت به عادة أهل الرحلة . اذ ليس غرضنا أن يكون ما نكتبه دليلا للراحلين فى السفر والنزول ومعرفة الطرق والمسافات والأجور . وانما نريد أن نمثل للقارىء ما طبع فى ذهننا أثناء هذه الرحلة بعد اعمال الفكرة فى أحوال تلك الأمم) .

ونستطيع أن نضم رحلة زيدان هذه الى نظائرها من رحلات العرب فى العصر الحديث ، من أمثال رفاعة الطهطاوى ، وعلى

مبارك ، وأمين فكرى ، واحمد زكى باشا ، وأحمد فارس الشدياق، ومحمد لبيب التبافونى ، وأحمد حسنين ، وشكيب أرسلان ، وأمين الريحانى ، وعبد الوهاب عزام ، ومحمد ثابت ، وفؤاد صروف ، وجميل خانكى ، وأمين المميز العراقى ، وأحمد عطية الله ، ونزيه مسعد ، وعبد السلام العجيلى ، وأنيس منصور ، وفتح الله الصقال ، ومحمود البدوى. ولكل من هؤلاء طريقته فى الوصف، والعرض، والتعليق ، وجمع المعلومات ، وتسجيل اللمحات . وأجمل ظننا بقارئنا الكريم أنه يعرف عناوين رحلات هؤلاء الرحالين والجوابين، فلا معنى لملء هذا الفراغ بذكرها .

واذا كان زيدان قد كشف لنا عن منهجه فى الرحلة وغرضه من تسجيل آثارها ، فانه لا يفوتنا هنا أن نشير الى النواحى التى جلاها فى زيارته لفرنسا فى القسم الخاص بها من الكتاب ، فقد تحدث فى دقة وافاضة عن نظام حكومتها ، وعمرانها ، وحالتها الاقتصادية ، وحالتها العلمية ، ومظاهر حضارتها كالمركبات العامة، والاعلان ، والأزياء ، والبوربوار « البخشيش » ـ أو البقشيش ـ ونظام الاجتماع فيها ، وطبائع الفرنسيين ، والجمال ، والاقتصاد والترتيب ، والثقة بين الناس ، وقيمة الوقت ، وصدق المواعيد ، والمفاخرة برجالهم ، والحرية ، وطعامهم ، وشرابهم ، والأرساليات ـ أو البعثات التعليمية ـ المصرية ، وآثار فرنسا ، وضريح نابليون،

ومتاحف باريس ، ومعارض الصور ، والمكتبة الأهلية ، وقصور العاصمة وضواحيها ، وقصور فرنسا على وجه العموم .

وكان زيدان ـ شأن المفكر الاجتماعي المصلح ـ يعقد الموازنات والمقارنات في رحلته بين حالنا هنا ، وحال القوم هناك . ففي فصل له عن التعليم بفرنسا يفضي به القول الى الحديث عن التعليم بمصر في وقت رحلته قبل الحرب العالمية الأولى بعامين ، فيقول في صراحة تامة ملقيا تبعة التقصير على الحكومة وأصحاب الأموال : (فالتعليم عندنا ضعيف جدا من كل وجه . ويكفي في هذا المقام أن نبين تقاعد حكومتنا وأغنيائنا عن التعليم ، ولا يحتج علينا بصغر مصر بالنسبة الى فرنسا ، فان سكان مصر يناهزون ثلث سكان فرنسا ، ومع ذلك فالحكومة لا تنفق على التعليم عشر ما تنفقه فرنسا ...).

وعند ما شاهد زيدان في رحلته الى أوربا سنة ١٩١٢ الحرية البالغة التي تتمتع بها المرأة الفرنسية ، وتجاوزها الحدود في اساءة استعمال هذه الحرية ، حمد الله على حال المرأة العربية ، وكاد يرضى لها بالحجاب والجهل ، مع أنه كان من أشد القوم هنا مناصرة لحركة التحرير التي دعا اليها قاسم أمين ...

وكان في زيدان المؤرخ الأديب اللغوي طبيعة الرحالة حين ينزل ببلد ، فلا يجد معدى من وصفه ووصف عمارته ومغارسه ومنازله وأهله ، والألمام بتاريخه . فانه لما زار سورية ولبنان في سنة ١٩١٠ ـ كما سلف القول ـ لم يفته أن يكتب بحثا ، ويرسم صورة

لدمشق والدمشقيين • وتمتاز أوصافه تلك بالدقة والالمام بالتفاصيل• ولا بأس من ايراد هذه الصورة لدمشق من مطل لها عال على «الصالحية» يقول فيه صاحبنا (١) : (أشرفنا ذات صباح على دمشق من مكان يقال له « المصطبة » ، فاذا هي مبسوطة بين أيدينا ، وحولها الغوطة تحدق بها من كل ناحية ؛ كأن دمشق قصر كبير تحيط به حديقة كبيرة • ومساحة هذا القصر : دمشق ، بضعة أميال مربعة ، وأما حديقته : الغوطة ، فتمتد بضعة أميال الى كل ناحية • تخترقها الأنهر والترع ، وتشتبك أشجارها المثمرة ، وأكثرها من المشمش وهو أكبر غلاتها ، والتفاح ، والكمثرى ، واللوز ، والسفرجل ، والرمان وغيرها •

وقد أكثر الشعراء من وصف دمشق وغوطتها وبساتينها وهوائها وسكانها • قال الصنوبرى :

صفت دنيا دمشق لقاطنيها
فلست ترى بغير دمشق دنيا
تفيض جداول البلور فيها
خلال حدائق ينبتن وشيا

---

(١) مجلة الهلال : الجزء الثالث من السنة الرابعة والثلاثين — أول ديسمبر سنة ١٩٢٥ •

مكللة فواكهــــن أبهى الـ

المنـاظر في منـاظرنا وأهيا

فمن تفـاحة لم تعــد خـدا

ومن أترجـة لم تعد ثديا ..!

لقد كان جرجي زيدان يجـد في مطالعـة الكتب والوثائق والمخطوطات مصدرا لا ينضب للمعرفة التي ملأ بها تصانيفه ، ويجد في الرحلات والأسفار مادة للخبرة والتجربة في الحياة ، فتزود من الناحيتين بأعمق وأخصب وأطرف ما يمكن أن يتزود به انسان ...

زيدان المعلم والأستاذ

عجيب أمر هذا الرجل الذى كان قصاراه أن ينتهى به الأمر ليدير المطعم المتواضع الذى كان يملكه والده فى بيروت. ولكن آماله كانت بعيدة المرامى ، فهو يحلم بأن يكون يوما ما مثل الأدباء والعلماء الذين كانوا يترددون على مطعم والده . وهو يرجو أن يصبح يوما ما مثل هؤلاء الصحافيين الذين كانوا يتناقشون ويثرثرون على موائد الطعام فى ذلك المطعم الذى كان قابعا فيه يرقب الداخلين والخارجين. وكان يرى الشيخ ابراهيم اليازجى ، والمعلم عبد الله البستانى ـ صاحب معجم البستان ـ يفدان الى المطعم فيمن يفد اليه من العملاء ، فيأنس بهما ، ويقف بالقرب منهما يستمع الى أحاديثهما ، ويعى كلامهما . فلما وجدا منه حسن اصغاء أذنا له بالجلوس معهما يغترف من بحرهما ، وينهل من مواردهما. بل كان يرجو أن يصير فى يوم

من الأيام مثل طلبة الكلية الأمريكية ببيروت الذين كانوا من المترددين على مطعم أبيه ، وان يتاح له من فرص الالتحاق بالكلية ما أتيح لهم، وكثيرا ما كانوا يعجبون بسعة معارفه ، ونضج آرائه ، وتفتح ذهنه ، فيدعونه معهم الى الاحتفالات التى كانت تقام بالكلية فى المناسبات المختلفة ، وخاصة فى أعقاب الامتحانات ، فيسمع الخطب ، ويرى التلاميذ الناجحين يظفرون بأعجاب الحاضرين ، فيتمنى فى نفسه لو يكون مثلهم . وقد يستولى عليه الألم فيصارح أحد أصدقائه بقوله: ألا يأتى يوم أقف فيه موقف أولئك المتعلمين ؟ هذا الفتى الذى كان يتمنى التعليم بأية وسيلة قد أصبح فى سن الثامنة والعشرين معلما. ففى أواخر سنة ١٨٨٩ كانت شهرته فى التأليف قد بدأت تظهر ـ وخاصة بعد كتابه فى الألفاظ العربية والفلسفة اللغوية ، وكتابه فى تاريخ مصر الحديث الذى ظهر فى أوائل سنة ١٨٨٩ ، وكتابه عن تاريخ الماسونية الذى كان من حصيلة ذلك العام أيضا . فاذا بادارة المدرسة العبيدية الكبرى لطائفة الروم الأرثوذكس بالقاهرة تدعوه ليقوم بتدريس اللغة العربية وآدابها فيها سنة ١٨٨٩ . وكانت هذه المدرسة ـ التى كانت تعد من المدارس الأجنبية ـ تهتم بتعليم اللغة العربية اهتماما عظيما ، وتختار لتدريسها أكفأ المعلمين من المصريين والسوريين ، ومؤسسها روفائيل عبيد السورى (١) .

ولأول مرة يصبح جرجى زيدان معلما فى المدارس .. فهو

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية . جـ ٤ ص ٥٠ ..

الآن ، والقياس مع الفارق كما يقولون ، مثل معلمه الأول « ألياس » الذى كانت مدرسته فى قبو متواضع ببيروت ••• ويقضى زيدان فى التعليم بالمدرسة العبيدية سنتين ، وتتصوره فى مهنة التعليم رجلا موفقا ناجحا محبوبا من تلاميذه • لأن له من سمته ووقاره وهدوئه وحيائه وغزارة مادته العلمية وبساطته فى ايصال المعرفة الى التلاميذ ما يضمن له النجاح والتوفيق •

هذه هى الفرصة الوحيدة التى مارس فيها زيدان التعليم النظامى بمدرسة نظامية • وقد تهيأت له فرصة أخرى للتدريس بالجامعة المصرية القديمة ولكن ظروفا معينة حالت دون ذلك • فان شهرة الرجل فى التاريخ وتاريخ الحضارة الاسلامية قد نبهت ادارة الجامعة المصرية الى ضرورة الأفادة من جهود هذا الرجل العصامى وعلمه الغزير • وكان كتابه (تاريخ التمدن الاسلامى) قد ترك دويا هائلا فى العالم كله بين مشرقه ومغربه ، فأثنى عليه العرب والمستعربون ، وعدوه أول وأعظم مصدر لتاريخ الحضارة العربية الاسلامية • وما كادت اجراءات التعين فى الجامعة تأخذ طريقها حتى قامت أصوات قوية تعارض الكتاب ، وتعارض تعين مؤلفه فى الجامعة • وكان الرجل قد أعد بالفعل المحاضرات التى سيقوم بألقائها على طلبته فى الجامعة وضمها فى مخطوط واحد يكون بين يديه حين يبدأ العمل • ولكن أصوات المعارضين كانت أقوى من كل شىء ، فحيل بين الرجل وبين مكانه الصحيح فى الجامعة التى كانت تفخر

بانضمامه الى هيئة التدريس فيها ، وصدم الرجل حين سمع وقرأ ضجيج المعارضين ، واستجابة ادارة الجامعة لتلك الضجة القائمة . ولكنه كان أصفى نفسا من أن تؤثر فيه أمثال تلك الحملات العنيفات، فانسحب من غبار المعركة فى هدوء وانكسار ... وسلم أدارة الجامعة المخطوط الذى كان يضم المحاضرات المنوى ألقاؤها ليكون تحت تصرفها ... أو ليكون ـ على الأقل ـ صدى من أصداء تلك الحركة الشديدة . ولا يزال المخطوط فى مكتبة جامعة القاهرة اليوم ينتظر من يزيح الغبار عن جوانبه .

ولعلك أيها القارىء الكريم تود أن تعرف السر فى الحملة التى أقيمت ضد جرجى زيدان لتحول بينه وبين التدريس فى الجامعة المصرية القديمة . لقد كانت انتقادات الشيخ شبلى النعمانى المصلح الاسلامى فى الهند لكتاب « تاريخ التمدن الاسلامى » هى الشرارة الأولى لتلك الحملة . فقد اتهم جرجى زيدان بالشعوبية ، واتهمه بالخوض فى أمور اسلامية لا يحسن الخوض فيها ، واتهمه أكثر من هذا بأنه يعمل على تحقير الأمة العربية وابداء مساويها ، واتهمه بالكذب فى رواية الحوادث ، والخطأ المقصود فى الاستنتاج . وقد نشرت مجلة « المنار » للسيد محمد رشيد رضا هذه الاتهامات والانتقادات فى سلسلة من المقالات سنة ١٣٣٠ هـ ١٩١٢ م. وكانت أصداؤها لا تزال قوية ترن فى الآذان ، فتحرج المشرفون على الجامعة من ندب الرجل للتدريس فيها بعد أن قيل فيه ما قيل . وقد أشار

المستشرق كراتشكوفسكى الى هذه الحادثة فى كلمات قليلة وجيزة يقول فيها : (ولم يكن المسلمون المحافظون ليرضـوا بأن يعمـد زيدان ـ وهو الكاتب المسيحى ـ الى الخوض فى موضوعات اسلامية بحتة • ويتجلى ذلك بأجلى بيان فى الهجمات التى تعرض لها عندما عرض عليه منصب الأستاذية فى الجامعة المصرية) •

والحق أن الحيلولة بين جرجى زيدان وبين التدريس فى الجامعة كانت خسارة لا تعوض لجامعة ناشئة فتية، حشد لها العلماء والأساتذة العالميون من أمثال كارلو نللينـو ، وليتمـان وغيرهما • وقد كان المرحوم الشيخ محمد الخضرى يلقى فيها محاضراته عن التـاريخ الاسلامى ، ويعلم طلبة الجامعة القدماء من أمثال طه حسين ، وأحمد البيلى ، ومحمود عزمى ، وسيد كامل كيف يقرءون المصادر العربية الكبرى من مثل تاريخ الطبرى ، والكامل لابن الأثير وغيرهما •

على أن جرجى زيدان ، اذا خسرته الجامعة وخسره كرسى التدريس فيها ، فقد استبدل بذلك جامعة الحياة التأليفية التى كان فيها صاحب مكان مرموق • فليس من الضرورى أن يكون المعلم صاحب كرسى يجلس عليـه ويجلس الطلاب أمامه • فقـد يكون المؤلفون أصحاب رسالة تعليميـة كبرى لا تقل عن رسالة المعلمين فى المدارس والجامعات • والى هذه الحقيقة يشـير المغفور له داود بركات رئيس تحرير الأهرام من كلمة له فى تأبين جرجى زيدان يوم وفاته سنة ١٩١٤ حيث يقول : (جرجى زيدان يبتدىء فضله

بأنه علم نفسه ، ويتضاعف هذا الفضل ويعظم ، ويفخم ويسمو . بأنه كان فى مدى حياته كلها معلما لغيره • ويدوم هذا الفضل غير منته الى حـد ، ولا منقطع الى مدى ، « بهـلاله » ، وهـو ـ يعنى الهلال ـ وحده مكتبـة ضخمة لا ينقصها علم ، ولا يفوتها فن ، حتى يصح أن يقال لكل طالب : عد الى الهلال تلق ضالتك ، وبتآليفه التى تستنفد قراءتها شطرا كبيرا من عمر القارىء اذا قرأ ، فكيف بعمر المؤلف اذا كتب ؟) •

واذا سلمنا بهذه الحقيقـة ، حقيقـة الأسـتاذية بلا مدرسـة ولا معهد ولا جامعة ، رأينا جرجى زيدان يخرج من القضية بأوفى وأكرم نصيب • ان تلاميذ فى مدرسة نظامية لم يتلقوا عليه العلم الا فى المدرسة العبيدية الكبرى ، ولكن تلاميذه فى مدرسـة الحيـاة الكبرى كانوا أكثر عددا ، وأرفع طرازا ، وأكرم معدنا • ونستطيع ان نقول فى اطمئنان مع صاحب كتاب « من أعلام الفكر والأدب » أن الدراسات التى كتبها طه حسين ، والعقاد ، وهيكل ، ووجدى، والجميل ، ومطران ، والبشرى ، والمنفلوطى ، وجبران على فترات متباعدة أو متقـاربة من ذكراه ، تعطينـا فكرة واضحة بأن هؤلاء الكتاب تتلمذوا أو اتصلوا من قريب بآثار هذا الكاتب ، فضلا على أن هذه الآثار كانت موجهة لفنهم وأسلوبهم •

لقد كان زيدان فى الحق معلما دون أن يكون له « طراحة » أو « باشتختة » يجلس عليها ، أو سـبورة يطرز سـوادها ببياض

الطباشير • وكان معلما دون أن يتقيد بفصل معين من التلاميذ ، أو بجرس يدق فيؤذن التلاميذ بالاقبال والانصراف ••• ذلك الجرس الذى وصفه شوقى بقوله :

لهم جرس مطرب فى السراح

وليس اذا جـد بالمطـرب

وكان معلما من فرع رأسه الى أخمص قدمه وهو يبث علمه الغزير فى جود وسخاء ، كالشجرة الكريمة تجود بالعطاء فى غير من ولا استعلاء • وكان علمه هذا ينشره عن طريق مؤلفاته الكثيرة الخصبة ، و « هلاله » الخصيب الثرى المعطاء •

لقد كان جرجى زيدان أستاذا لكثيرين ممن انعقدت لهم فى الأدب والعلم والصحافة ألوية ، واستقام لهم فى الفكر العربى مكان •

واذا أردنا شاهدا على ما نقـول فلن يعـوزنا الأتيان من ذلك بالعشرات ••• لقد كان أنطون الجميل أديبـا ناشـئا حين ظهرت الطبعة الأولى من ديوان خليل مطران سنة ١٩٠٨ • وقرأ أنطون الجميل الديوان ، وبدت له فيه نقدات وملاحظات ، فسجلها فى مقال ، وبعث به الى جرجى زيدان لينشره فى مجلة الهلال • وعاد اليه فى مغرب اليوم التالى ليعرف رأيه فيه • وكان زيدان على عادة لا يخل بها فى حياته المنظمة ، وهى أن يجلس مغـرب كل يوم فى مكتبـة

الهلال بالفجالة • فلما وقعت عين زيدان على أنطون الجميل رحب به ، وأحسن لقاءه ، وهنأه بمقاله ، ووعده بنشره فى عدد الشهر القادم من الهلال • ولم يكتف بهذا اللقاء الجميل ، والوعد الكريم ، ولكنه أسمعه بعض عبارات التشجيع قائلا : (أبشرك بمستقبل حسن فى الأدب اذا ثابرت على البحث والكتابة ••• وأهدى الى المجلة على سبيل المكافأة • ولا شك أن هذا الحادث كان من الحوافز التى دفعتنى الى الكتابة فى المستقبل) •

هكذا يروى لنا أنطون الجميل بعض ذكرياته عن جرجى زيدان ، ومنها نعرف كيف كان الرجل يوجه من يشيم فيهم الأدب والثقافة ، وكيف كان يشجعهم بالكلمة الطيبة ، والمكافأة المجزية ، وفتح أبواب النشر أمامهم لعلهم يكونون يوما من الكتاب النابهين ، والأدباء المرموقين ؟ أليست هذه بعض صفات المعلمين والأساتذة الذين يسعدهم أن يكون لهم تلاميذ نجباء ، ولا يضرهم بحال أن يكون فى تلاميذهم من يفوقهم فى الاعتبار ، لأنهم كالآباء الذين يسعدهم أن تكون حظوظ أبنائهم أسعد من حظوظهم •

وما أكثر أدبائنا النابهين اليوم ، والناشىء فى حياة جرجى زيدان الذين كانوا يترددون عليه ، ويسألونه فى مشكلة من مشاكل العلم أو قضية من قضايا التاريخ ، فيفتح الرجل لهم صدره وعقله ، ويردهم بما فيه الافادة والاقناع • ومن هؤلاء الأدباء المرحوم عباس محمود العقاد ، وندعه هنا يروى بنص عبارته ما جرى بينه وبين

زيدان حيث يقول : (••• ومرة أخرى زرته فى بيته فى الفجالة وانظاهر ، وأنا مشغول بقراءة شوبنهور لأسأله رأيه فى أصح النظرتين الى حقائق الحياة : نظرة المتشائمين أو نظرة المتفائلين ••)

وما أكثر ما كانت مجلة الهلال تفتح صدرها لأسئلة القراء فى كل لون وفن • وما أكثر ما كان زيدان وحده يرد على هذه الأسئلة رد العالم المتثبت المتمكن ، ولو أحوجه الجواب الى الاطلاع على عشرات من المراجع والمصادر !

ان الله قد أفاض عليه المعرفة والعلم ليفيضهما على غيره ممن لا يجدون السبيل لهما ميسرة ، فهو كالجدول لا يبخل بقطرة من ماء ، وكالشمس لا تضن بحزمة من ضياء •

ولو رجعت الى اعداد مجلة الهلال منذ انشائها سنة ١٨٩٢ لوجدت فيها بابا يطالعك كل شهر هو باب « بين الهلال وقرائه » ، وتختلف فيه الأسئلة فى ميادين العلم والأدب والتاريخ والاجتماع• فهذا سائل عن « فناء المادة » ، وهذا سائل عن «استئناس الوحوش» ، وهذا سائل عن « عبادة الشمس » وهذا يسأل : هل أخطأ هارون الرشيد أم أصاب فى الفتك بالبرامكة ؟ وكلها أسئلة كانت تجد من محرر الهلال الاهتمام بالجواب •

ان قراء الهلال كانوا يقفون من زيدان موقف الطالب من المعلم ، كما أن قراء مؤلفاته العديدة المفيدة كانوا فى مثل هذا الوضع من التتلمذ عليه ، والأخذ عنه ، والأفادة منه • فاذا لم تكن هذه أستاذية المعلم بحق فكيف تكون الأستاذية اذن بعد هذا التلقى والافضاء ؟

مناهج التأليف عند زيدان

لقد ظل جرجي زيدان خمسة وعشرين عاما من عمره وهو لا يعالج التأليف ، ولا يهم به ، الا ما كان من تلك الفكرة الطارئة التى خطرت له وهو يتلقى دروسا فى اللغة الانجليزية ، حيث بدأ بالفعل يضع معجما للغة الأنجليزية والعربية بلغ فيه الى حرف E ولكنه توقف عن العمل فيه لقلة وسائله • ولعل لصغر سنه دخلا فى هذا التوقف ، فقد كان يومئـذ على أبواب الخامسـة عشرة من عمره •

وفى سن الخامسة والعشرين صمم زيدان على أن يقدم للمكتبة العربية أول كتاب من تأليفه، فكان كتابه « الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية » • وكانت الظروف المحيطة به ، والوسائل التى بين يديه تساعده على تأليف هذا الكتاب ، فهو يومئذ عضو « بالمجمع العلمى

الشرقى » الذى انتخبه لما لمسه الأعضاء فيه من الجد والبحث ، ولما عرفوه عنه أيام كان طالبا بالسنة الأولى فى الكلية الأمريكانية ببيروت ، وهو يومئذ ـ أيضا ـ قد فرغ من تعلم العبرية والسريانية واتقانهما .

وعلى الرغم من طرافة موضوع الكتاب وأوليته فى التأليف العربى فان زيدان لم يكن له فيه منهج تأليفى واضح . ولعل (للبداية) هنا دخلا كبيرا ، فأن العمل الأول دائما لا تستوى له من المناهج ما توحى به الأعمال التالية .

لقد ظهر كتاب « الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية » سنة ١٨٨٦ ، وكان بحثا متكاملا لم ينشر منجما فى مجلة أو صحيفة ، لأن مجلة الهلال لم تكن قد أنشئت بعد . ولو كانت الهلال موجودة فى ذلك الحين لرأينا الكتاب منشورا فيها على هيئة فصول فى أعداد متتالية .

ومهما يكن من أمر فقد استقبل النقد ـ لا التقريظ ـ كتاب الفلسفة اللغوية بما يستحقه من الاهتمام والتناول تقديرا لشأنه . ورأينا الدكتور يعقوب صروف يتناوله بالنقد النزيه فى المجلد الثامن من مقتطف سنة ١٨٨٦ .

واذا كان زيدان قد احتاج فى سبيل تأليف هذا الكتاب الى دراسة كتب فقه اللغة واللغتين العبرية والسريانية وغيرهما من اللغات

السامية ، فانه فى كتبه التالية مثل « تاريخ التمدن الأسلامى » ، و « تاريخ آداب اللغة العربية » احتاج الى دراسات أوسع ، ومراجع أعظم وأكثر ، ولغات أجنبية مما كتبه المستشرقون وعلماء الدراسات العربية الاسلامية •

ولقد كابد جرجى زيدان كثيرا من العناء فى جمع المواد العلمية لمؤلفاته كلها بلا استثناء ، وخصوصا أن موضوعاتها مبعثرة مشتتة مما يضل فيه الباحث • وهذه حقيقة لا يعرفها الا الذين عانوها من بعيد أو قريب ، وقد أشار اليها أنطون الجميل فى الخطبة التى ألقاها فى تأبين زيدان حيث اجتمع زملاء الفقيد ورصفاؤه (وهم أدرى من سواهم بما يكابده المؤلف فى الشرق من العناء فى جمع مواده وتأليفها فى أى فن من فنون الكتابة • لذلك يدرون كم كانت لغتنا مدينة لجامع أشتات تاريخها وتاريخ آدابها وتاريخ شعوبها) •

واذا كنا فى زماننا هذا نكابد جمع المادة العلمية للتأليف ، مع كثرة المكتبات ، وكثرة الكتب المطبوعة ، وحصر المخطوطات وتصويرها ونشرها ، وفهرسة المواد والمصادر ، فكيف كان الحال فى الربع الأخير من القرن الماضى ، حيث كانت العقبات تقف فى سبيل الباحث والمؤلف على اختلاف صورها ؟

هذه المكابدات والمتاعب التى كان يلقاها المؤلفون والباحثون ، ولا يزالون يلقونها الى اليوم بصور تختلف باختلاف الموضوع

ومراجعه المشتتة المتناثرة ، قد لقيها زيدان واضطر الى أن يذكرها حينما كثر المنتقدون لكتبه ، الذين كانوا يتصيدون له المآخذ حتى الضئيلة ، ويجسمونها ويبالغون فى التهويل بها ، فنراه فى مقدمة الجزء الثالث من « تاريخ آداب اللغة العربية » يقول فى لهجة من الأسى : (أخذنا فى هذه الخدمة منذ ربع قرن ، وتاريخ الاسلام مشتت فى كتب القدماء • فرأينا أن نأخذ على عاتقنا استخراجه من مظانه بالبحث والتحقيق • ويشهد الله والمنصفون من القراء أننا أخلصنا النية ، وبذلنا الجهد فى بيان حقيقته ، واعترضتنا عقبات مهدناها بالصبر والاغضاء والجد والعمل) •

وكأنما أحس جرجى زيدان أن التأليف فى المكتبة العربية لا يصح أن يترك بغير توجيه أو تقويم • فقد كان الرجل يعرف لغات أجنبية عدة ، وكان يعرف مناهج المؤلفين والباحثين فى هذه اللغات ، ويعرف الفرق بين البحث المشتت والبحث المنظم ، فوضع للتأليف شروطا ذكرها فى تقديمه للجزء الثانى من « تاريخ آداب اللغة العربية » •

وقبل أن يمضى زيدان فى بيان شروط التأليف أراد أن يحدد الفرق بين من يكتب فى الشئون الخاصة ، وبين من يكتب للمصلحة العامة فيقول : (من تصدى للكتابة أو التأليف فقد جعل نفسه خادما للمصلحة العامة، الا من يحصر كتابته فى شئون خصوصية أو يعالج علما يلذ له ولا يهمه سواه ، أو يتعاطى الكتابة لأغراض معينة ، أو

يكون مرماه من التـأليف بيان قدرته على الانشـاء ، والغوص على المعانى العويصة والألفاظ الغريبة بتقليد الأساليب القديمة التماسا لاعجاب العلماء ، مما يشـق فهمـه على جمهور القـراء • فهؤلاء وأمثالهم يكتبون لأنفسـهم أو لطبقة خاصـة لغرض خاص • ولهم منزلة وفضل ، ولكن فى غير الخدمة العامة • واذا لم يصادفوا اقبالا من الجمهور اتهموه بالجهل ، وهـددوه بالاعـراض والتقـاعد عن الكتابة ، مع أنه لم يشعر بوجودهم ، لأنهم لم يخاطبوه بلسانه • وأما الكاتب العمومى فانه خادم الأمة وولى ارشادها • وعليـه أن يبذل الجهد فى سبيل مصلحتها) •

ويضـع جـرجى زيدان للمـؤلف أو الـكاتب الذى يكتب للمصلحة العامة شروطا ثلاثة ؛ أولها أن يختار للكتـابة الموضوع الذى يرى الأمة فى حاجة اليه • فما دام الكاتب يؤلف للمصلحة العامة فلا بد أن يتبين حاجات قومه ، ومطالب أمتـه ، حتى تكون تآليفه من نبع احتياجات القوم ومصـالحهم • ومن هنا كان اختيـار زيدان لموضـوعات مؤلفـاته • فان « تاريخ مصر الحـديث » كان استجابة لضرورة معـرفة المصريين بتاريخهم القـديم والحـديث ، وكتاب « تاريخ التمدن الاسلامى » كان صـدى لحاجات العـرب والمسلمين فى العصر الحديث الى معرفة مشـاركاتهم فى الحضـارة العالمية ، ومدى ما قدموه الى العالم من مدنية وحضارة ومعرفة • وكذلك الشأن فى كتابه « تاريخ آداب اللغـة العربية » بل كذلك

كان الشأن فى بقية كتبه الكثيرة ، فانها كانت من وحى حاجة الأمة العربية التى كاد ينقطع ما بينها وبين أمجادها التاريخية والأدبية في ذلك الزمان •

وثانى الشروط التى وضعها زيدان للمؤلف والكاتب الذى يكتب للمصلحة العامة (أن يسبك المؤلف موضوعه فى قالب يسهل تناوله) • ولقد حرص زيدان على هذا الشرط فى كل ما كتبه سواء أكان دراسة أدبية ، أم بحثا تاريخيا ، أم رواية من روايات تاريخ العرب والأسلام • وقد بلغ من حرصه على هذه السهولة أن اتهمه بعض النقاد بضعف الأسلوب ، وعدم التأنق فيه ؛ كما فعل المرحوم الدكتور أحمد أمين فى مقال له عن زيدان ، بالكتاب الذهبى من الهلال ، وكما فعل الشيخ ابراهيم اليازجى فى نقده لأسلوب زيدان ولغته •

والحق أن زيدان قد راعى فى سهولة الأسلوب ظروف قرائه الكثيرين من العامة الذين كان حريصا أن يبسط لهم المعارف ، وييسر لهم العلوم ، وهى مسألة سنتناولها بالتفصيل فى موضع آخر من الكتاب •

وثالث الشروط التى وضعها صاحبنا للمؤلف : (أن يتوخى صدق اللهجة والصراحة ، بلا انحياز الى طائفة أو حزب)• وأغلب الظن أن جرجى زيدان قد وضع هذا الشرط الثالث فى سنة ١٩١١ ردا على ما اتهمه به الشيخ شبلى النعمانى المصلح الاسلامى الهندى

من تعصبه وانحيازه لطائفة اسلامية على أخرى • وكانت هذه الاتهامات عقب صدور كتاب « تاريخ التمدن الاسلامى » سنة ١٩٠٢ • وقد نشرت فى مجلة المنار سنة ١٩١١ ، على أن قضية الأسلوب السهل الى أبعد حدود السهولة فى التأليف لم يتركها زيدان بلا توضيح لها أو تعقيب عليها فى الموضع الذى تحدث فيه عن شروط التأليف ، وقد أسماه « الأسلوب العصرى » الذى (لا يشذ عنه الا المتفانون فى المحافظة على القديم) •

وقد حرص زيدان فى مؤلفاته على أن يكشف عن أغراض تأليفه • ففى « تاريخ آداب اللغة العربية » يوضح لنا غرضه من تأليف هذا الكتاب بقوله : (وقد ألفنا هذا الكتاب للناشئة العربية أو طلاب هذا اللسان الذين يريدون الوقوف على العلوم العربية وأماكنها للمطالعة أو التأليف ، أو يعوزهم درس موضوع أو الكتابة فيه ، ولا يعرفون مظانه • وقد عرفنا حاجة الناشئة الى ذلك من الأسئلة الكثيرة التى تتوالى علينا من هذا القبيل •

فربما رغب أحدهم فىدرس تاريخ أمة أو دولة أو موضوع من المواضيع الاجتماعية أو الأخلاقية أو اللغوية ، وأحب الاطلاع على ما قاله العرب فيه ، ولا يدرى من ألف فيه منهم ، وهل ما ألفوه لا يزال باقيا ، وما هى قيمته بالنظر الى سواه فى موضوعه ؟ وهل طبع ؟ وأين ؟ واذا لم يطبع فأين يوجد ؟ الخ) •

ويلاحظ الناظر فى مؤلفات جرجى زيدان أنها تمتاز بذكر

المراجع والمصادر . وقد تعود الرجل الرجوع الى المصادر فعز عليه أن يسقطها من حسابه حتى وهو يؤلف رواياته التاريخية ، مع أن الروايات فى الغالب لا تحتاج الى تسجيل قائمة بمراجعها ، ولكن هذا يؤكد غلبة الصفة العلمية ، ونزعة العلماء الأصلاء فيه . وهو يصدر كل رواية من « روايات تاريخ الاسلام » بذكر قائمة المراجع التي أفاد منها فى تأليف روايته ، ففى رواية « فتاة غسان » يحشد حشدا هائلا من كتب المراجع ما بين عربية وأجنبية ، كالطبرى ، وابن الأثير ، والمسعودي ، والمقريزى ، والنويرى ، وياقوت الحموى ، وابن هشام ، وابن خلدون ، والواقدى ، وجون مرى ، وسيريل ، ونوركهارت ، وفوشيه ... وغيرهم . وسنتناول موضوع المصادر والمراجع مفصلا في فصل آخر من كتابنا هذا ، وفاء بحق البحث فى موضعه . على أن قضية المراجع والمصادر لا بد أن تأتى فى فصل يتناول مناهج التأليف عند جرجى زيدان ، كما أن قضية منهجه التاريخى ستأتى فى فصل خاص .

ولما كان زيدان كثير التناول للمصادر الأجنبية التى كتبها أهل الاستشراق ، فقد أفاد منهم العقلية التنظيمية للتأليف ، والتسلسل للموضوعات ، والترتيب الدقيق ، وجمع الأشباه والنظائر والوصول منها الى استنتاج عام . ويتجلى ذلك بوضوح فى كتابيه العظيمين : « تاريخ التمدن الاسلامى » و « تاريخ آداب اللغة العربية » . وتلاحظ هذا التنظيم من مجرد القاء نظرة على أبواب كتاب تاريخ

التمدن الاسلامى . ففى بحثه عن الجند الاسلامى تأتى هذه المسائل متعاقبة فى فصول متوالية من الكتاب : الجند وتوابعه ، جند الروم، جند العرب ، تنظيم جند العرب ، جند الاعاجم فى الأسلام ، ديوان الجند ، أعطيات الجند ، عدد الجند ، اللواء أو الراية .

ومن مناهج زيدان فى تآليفه تشقيق المسائل وتنويع التفريعات والدقائق فى الموضوع الذى يعالجه . فهو حين يتناول موضوعا متكاملا يلقى عليه أضواء من فكره الواسع ، ويفرعه الى قضايا ومسائل وفصول جانبية لا يفطن لمثلها الا الراسخون من العلماء . وفى طبيعته الخاصة ومزاجه الفكرى شيء كثير من هذا ، على أنه قد أفاد من صنع المستشرقين والأجانب فى هذا الباب ؛ فهو يفتق المسائل فى الموضوع الرئيسى تفتيقا عجيبا ؛ ففى موضوع « نظام الاجتماع فى العصر العباسى » يفرعه الى المسائل الآتية : طبقات الخاصة ، أتباع الخاصة ، الخدم ، الأرقاء ، الخصيان ، الجوارى .

واذا كانت الفهارس للموضوعات فى مؤلفات زيدان منسقة ومقسمة أحسن تقسيم بحكم التنسيق الحسن فى موضوعات الكتاب نفسه ، فانه قد رأى أن اتساع الموضوعات وغزارتها ، والمامها بعصور الأمة العربية فى تاريخها الطويل منذ الجاهلية الى اليوم ، وكثرة الأسماء والأعلام فيها ، وغزارة أسماء الكتب والمؤلفات التى وردت فى كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » ، رأى أن ذلك كله يقتضى عمل فهارس عامة للكتاب تكون مستقلة فى كتاب قائم بذاته،

حتى يسهل الانتفاع بهذه الموسوعة الأدبية الضخمة ، وحتى تكون دائما فى منال من يريد الاطلاع عليها ، والبحث فيها ، والرجوع اليها . فكان من ذلك فهرس (١) عام للموضوعات والأعلام وأسماء الكتب . وقد طبع هذا الفهرس سنة ١٩٢٢ . ومن المؤسف أن الطبعة الأخيرة المحققة من هذا الكتاب بقلم الدكتور شوقى ضيف وتعليقاته الثمينة لم يصدر لها فهرس عام ييسر الانتفاع بها على الباحثين .

بقى ان نقول ان عناوين المؤلفات التى كتبها جرجى زيدان قد تخلصت جملة من السجع الثقيل الذى كان ظاهرا فى مؤلفات القرن التاسع عشر وما قبله من قرون . وقد كان على مبارك باشا من السابقين الى هذا التجديد والتخلص من سجع العناوين مع أنه توفى سنة ١٨٩٣ أى قبل ختام القرن التاسع عشر بسبع سنين ، وان كان الشيخ رفاعة الطهطاوى المتوفى سنة ١٨٧٣ لم يتخلص من الأسجاع فى عناوين مؤلفاته ، ككتاب « مواقع الأفلاك ، فى أخبار تليماك » ، و « قلائد المفاخر ، فى غريب عوائد الأوائل والأواخر » ، بل نجد أمين فكرى « باشا » المتوفى ١٨٩٩ يؤلف كتابا فى رحلته الى أوربا عنوانه : « ارشاد الألبا ، الى محاسن أوربا » ، ولعل أمين فكرى قد أبقى هنا على العنوان المسجوع الذى وضعه والده عبد الله فكرى

---

(١) أشار زيدان الى نيته فى عمل هذا الفهرس فى مقدمة الجزء الاول من هذا الكتاب ، وأنجزه بالفعل بعد ذلك .

للكتاب ، فلما مات الوالد ، أكمل ابنه الرحلة ، ولم يغير من عنوان الكتاب شيئاً ... ، بل أبقاه على سجعه .

ولا نترك هذا الفصل الذى جلونا به زيدان المؤلف دون أن نختمه باشارة الى موقفه الصحيح ومكانه الحقيقى فى التأليف . أكان زيدان باحثا أصيلا مبتكرا ، أم كان محاكيا مقلدا ؟ ويتهمه المستشرق كراتشكوفسكى بأنه (لم يكن بالباحث المبتكر) (١) . وهى تهمة كبيرة يعوزها شيء من الانصاف والتوضيح . فاذا كان كراتشكوفسكى يعنى أن زيدان قلد المستشرقين فى طريقة التأريخ للأدب العربى ، وفى طريقة التأليف عن حضارة العرب والأسلام، وأفاد من مصنفاتهم التى كانت مطبوعة فى عهده ، كما أفاد من مناهجهم وطرق بحثهم فان ذلك حق لا ريب فيه . ولكن زيدان كان يضفى على ما ينقله ويضيف اليه اضافات جديدة لم يفطن لها الغربيون . ويكفى أن محرر مادة « زيدان » فى دائرة المعارف الأسلامية ـ وهو كراتشكوفسكى نفسه ـ يقرر أن زيدان أضاف الى ما آخذه عن الأوربيين فى كتابه « تاريخ التمدن الاسلامى » كثيرا من المعلومات التى استقاها من المصادر العربية ، وأكمله بما يعرفه عن الحياة الحديثة فى الشرق . فزيدان قد قلد المستشرقين وجاراهم ولكنه وسع نطاق مباحثه وموضوعاته ، وتفتحت أمامه مسائل للبحث لم يتناولها غيره ممن سلك طرائقهم .

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية .

ولا يعاب زيدان بأنه حاكى أسـاليب الأوربيين فى تاريخ الأدب العـربى ، وفى تاريخ التمـدن الاسـلامى ، وفى رواياته التاريخية ، فان ملابسات عصره وظروف زمانه فى العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر ، وفى العقد الأول من القرن العشرين كانت تقتضى التقليـد والأخذ عن السـابقين فى ميادين الأدب والتـاريخ والقصة ، بل فى ميادين كثيرة من الحياة يومئذ. فلو لم يظهر زيدان لظهر غيره . ويكفيه أنه ارتاد الطريق لمن جاءوا بعده . وريادته فى هذا البلد تشبه من وجوه كثيرة ريادة الدكتور يعقوب صروف فى علوم الطبيعيات والفلسفة. فكل منهما امام فى هذا الميدان وسابق فيه.

المؤرخ ومنهجه التاريخى

كان جرجى زيدان مؤمنا بقيمة علم التاريخ وأهميته ومكانته بين سائر العلوم . وقد عبر عن تقديره الصحيح للتاريخ فى مقدمة كتابه « تاريخ مصر الحديث » حيث يقول انه عارف بما يترتب عليه من اصلاح الشئون ، وأنه أكثر ارتباطا بمصالح خاصة الناس منه بعامتهم، وأن أكثر الناس حاجة اليه هم قادة التمدن ورجال السياسة وكبار المصلحين . ومن هنا نشأت ظاهرة ايعاز ولاة الأمور فى الأمة العربية الى علمائها أن يضعوا فى التاريخ كتابا . بل لاحظ زيدان أن عددا غير قليل من حكام العرب والمسلمين قد شاركوا فى تأليف التاريخ ، غير مبالين بما يتطلبه ذلك من عناء الجمع ، وطول البحث.

ولم يكتب زيدان التاريخ بلا منهج مرسوم ولا خطة محددة. وانما كتبه عن طول ممارسة واطلاع على مناهج الغربيين ومؤلفاتهم

فى هذا الباب • فأفاد منها كثيرا • وباعد قدر الامكان ما بينه وبين طرق قدماء المؤرخين العـرب ، فهى طرائق لم تكن متمشـية مع التطور العلمى والتقدم الحضارى الحديث •

ولقد تناول جرجى زيدان فى مجاله التاريخى نواحى متعددة من تاريخ العرب والاسلام ، فكتب فى تاريخ الحضـارة الأسـلامية كتابا ضخما هو « تاريخ التمدن الاسـلامى » ، وكتب فى التـأريخ للأدب العربى كتابه المشهور بين رجال الأدب ، وكتب فى التاريخ العام من القديم الى الحديث ، وكتب فى تاريخ مصر من أقدم الأزمنة الى وقته كتابا مشهورا •

والحق أن كتابه فى التمدن الاسلامى كان شيئاً جديدا ، فما ألف الناس عندنا أن يقرءوا فى الحضارة الاسلامية أو يصادفوا من كتبوا عنها • فان مظاهر التمدن والحضارة العربية لم تكن منشورة فى كتاب مستقل منذ دون العرب التـاريخ ، ولكنها كانت أخبـارا وطرائف مبعثرة هنا وهناك فى كتب التاريخ العـام ، والطبقات ، والأدب ، والخراج ، والحسبة ، والمحاضرات ، والنوادر ، وغيرها• فاتجه زيدان الى التأليف فى هذا الموضوع الجديد الطريف ، وأخذ يجمع أشـــتاته ، ويلم مادته من كل كتـاب أو مصـدر يقع له • وما أصدق الدكتور حسين مؤنس وهو يقـول فى مقـدمة الطبعة الأخيرة لكتاب « تاريخ التمدن الأسلامى » : (وقد تهيب جرجى زيدان التأريخ للحضارة الأسلامية ، ووصف شعوره هذا فى مقدمة

الطبعة الأولى للجزء الأول من تاريخ التمدن الأسلامى • وكان محقا فى ذلك التهيب ، فان الميدان كان مجهولا على أيامه ، بل كان فن التأريخ للحضارات جملة فنا جديدا فى طور التكوين فى العالم كله اذ ذاك) •

وانصافا للحق وتجلية للموضوع نقول ان كتاب التمدن الاسلامى لزيدان قد صدر فى أولى طبعاته سنة ١٩٠٢ أى فى القرن العشرين ، وقد شهد القرن التاسع عشر عدة كتب لمستشرقين أجانب ألفت فى الموضوع نفسه • فان جوستاف لوبون كان قد أصدر كتابه « حضارة العرب » فى سنة ١٨٨٤ ، أى قبل كتاب زيدان بثمانية عشر عاما ، كما ظهرت كتب فى الموضوع نفسه للمؤرخ سيديو ، وفون كريمر ، وجولد تسيهر • والحق أن كتاب سيديو كان قد ترجم الى العربية مختصرا باشراف على باشا مبارك ، ثم أعاد الأستاذ عادل زعيتر ترجمته من سنوات • وقد سجل كراتشكوفسكى فى ترجمته لزيدان اعتماده على المصنفات الأوربية المشهورة للثلاثة الذين أشرنا اليهم ، وان كان لم يشر الى أفادته من جوستاف لوبون • ويشير المرحوم الدكتور جمال الدين الشيال الى جرجى زيدان حين نظمه فى سلك مؤرخى القرن التاسع عشر المصريين الذين تأثروا بالمنهج العلمى الحديث الذى لاحظوه فيما قرأوا أو درسوا أو ترجموا من كتب التاريخ الأوربية •

وقد جاء اهتمام زيدان بتاريخ الحضارة الأسلامية نتيجة ايمانه

بأن تاريخ الأمة الحقيقى انما هو تاريخ تمدنها وحضارتها لا تاريخ حروبها وفتوحها ، كما يقول فى مقدمة كتابه • وجاء اهتمامه بتاريخ الاسلام – على وعورته ومشقته – نتيجة لاعتقاده بأنه من أهم التواريخ العامة (لأنه يتضمن تاريخ العالم المتمدن فى العصور الوسطى ، أو هو حلقة موصولة بين التاريخ القديم والتاريخ الحديث ، فيه انتهى التمدن القديم ، ومنه أشرق التمدن الحديث) (١) •

ولم يكتف زيدان باهتماماته الكثيرة بالتاريخ العام والتاريخ الحضارى الاسلامى ، ولكنه اتجه الى التاريخ القومى للبلاد منذ اختار مصر وطنه بعد وطنه الأول لبنان• ويقرر لنا الرجل فى لهجة الأسف والاستغراب أنه لم ير بين المؤرخين الذين كتبوا عن مصر من اعتنى بوضع تاريخ مستوف لها على أسلوب قريب من فهم العامة ورضى الخاصة تتعاقب فيه الحوادث بتعاقب السنين ، مع علاقة كل ذلك بالدولة الاسلامية عموما ، وسائر الدول المعاصرة • كما أبدى صاحبنا استغرابه من أنه لم ير بين مدارس القطر المصرى مدرسة واحدة تعنى بهذا التاريخ الذى هو تاريخ بلادها (٢) •

ومن مناهج زيدان فى تأليفه التاريخى ما ذكره هو بنفسه – ولم نستنبطه – فى مقدمة كتابه « تاريخ التمدن الأسلامى » :

---

(١) تاريخ التمدن الاسلامى جـ ١ ص ١٢ طبعة أخيرة ..

(٢) تاريخ مصر الحديث ص ٤ •

فهو يقرر أنه نظر الى المادة التاريخية نظر الناقد ، فلم يذكر حادثة الا أسندها الى عللها وأسبابها ، وبين ما نتج عنها ، وذكر علاقتها بما بعدها •

وكان يجمع النصوص المختلفة الواردة فى موضوع واحد مهما تنوعت وكثرت مواردها ، ثم يسلط عليها ذهنه كما يقول المرحوم أحمد أمين ، ويربط ما بين بعضها بعضا ، ويستخرج من ذلك كله صورة كاملة أو حكما عاما (١) •

ولما كانت الروايات حول الموضوع الواحد تختلف بحسب أهواء رواتها وميولهم ومبلغهم من صدق الرواية وكذبها ، فانه الى على نفسه أن يعتمد على أصح الروايات ، وأصدق الكتاب من ثقات الرجال فى المشرق والمغرب (٢) ، وأن يعرض ذلك كله ويطبقه على أحكام العقل ، فما أجازه العقل أخذه ، وما لم يقبله العقل رفضه •

ولم يعزل زيدان شيئا من الحاضر عن الماضى فى مناولاته التاريخية ، فانه كان حريصا دائما على أن يربط بين القديم والحديث • وقد صنع هذا فى كتابه « تاريخ مصر الحديث » فانه رأى أن لا تتم الفائدة من الكتاب الا اذا جعل فى مقدمته له ملخص

---

(١) الكتاب الذهبى للهلال سنة ١٩٤٢ •

(٢) تاريخ مصر الحديث ص ٤ •

تاريخ مصر القديم ربطا للحوادث بعضها ببعض . وكذلك فعل في تاريخ التمدن ، فأنه في الموضع الذي تحدث فيه عن رواتب الخلفاء والعمال والوزراء في العصور الأسلامية المتعاقبة لم يفته أن يتحدث عن رواتب الأسرة المالكة في انجلترة ، ورواتب الأسرة الخديوية في مصر ، على سبيل المقارنة والربط ما بين الحاضر والماضي .

ولم يكتف زيدان في التاريخ بالسماع والقراءة في الكتب والنقل عنها ، ولكنه اتخذ منهج « المعاينة » ، وخاصة حين يتحدث عن الآثار والمشاهد . فهو يراها بعينه ، ويتكلف في الوصول اليها وقتا ومالا وسفرا ومخاطرة ، حتى تكون صفته لها صفة الأمين . وننقل من عبارته في ذلك قوله (١) : (وقد عنيت ـ اتماما لمعدات التأليف ـ بتفقد الآثار العربية بنفسي ... فزرت معظم جوامع القاهرة وضواحيها ، ولا سيما ما كان منها قديما كجامع عمرو ، وجامع ابن طولون ، والجامع الأزهر ، وجامع السلطان حسن ، وجامع السلطان برقوق ، وجامع قايتباي ، وجامع الغوري وغيرها . وزرت ما هنالك من البنايات القديمة كالقلعة وما جرى مجراها ، وتسلقت ما صعب مسلكه منها ، ولا سيما أسوار القاهرة القديمة وأبوابها ..) .

وزيدان في هذا المنهج لا يزيد على ما فعله الجاحظ ، وما أوصى به مؤرخنا ابن خلدون من المشاهدة والمعاينة بالنظر وعدم

---

(١) تاريخ مصر الحديث ص ٤ ـ ٥ .

الاكتفاء بالسماع ، والنقل، فان ذلك مدخل للتهويل والتشويه وعدم الضبط • ويشير ألياس زخورة الى ما صنعه زيدان فى هذا الباب فيقول : (وتفقد بنفســه كل الآثار المصرية ـ على ما فى ذلك من المشاق ـ ليكون وصفه لها مطابقا للواقع) (١)

والحق أن من يتصدى لكتابة التاريخ يتعرض لكثير من المعاناة والمشقة ، سواء أكان باحثا ومنقبا فى المصادر والمراجع ، أم معاينا للآثار والمشاهد بعينيه • وقد عانى المؤرخ الأسلامى المشهور رفيق العظم ـ صاحب « أشهر مشاهير الاسلام » ـ مثل الذى عاناه جرجى زيدان فى كتابة تاريخ العرب والاسلام ، فكتب كلمة يصف فيها طريقة زيدان وفضله على الحضارة العربية قائلا (اننى عانيت من تاريخ العرب ما يعانيه المؤرخون ، وعرفت من صعوبته ما لم يعرفه الا من عانى ما عانيت من المشقة فى انتقاد الحوادث والأخبار ، فلم أر أحسن من الأسلوب الذى اتبعه فى كتبه المرحوم جرجى زيدان، ولا أدق ترتيبا للمواضيع واختيارا للحوادث ، خصوصا فيما يتعلق بالمدنية الاسلامية ، فحق على كل مؤرخ أن يعترف بفضل جرجى زيدان على التاريخ العربى ببيان ما لم يسبق اليه من آثار المدنيـة العربية وتاريخها) (٢) •

وقد أدرك جرجى زيدان قيمة الرسوم والصور فى المؤلفات

---

(١) مرآة العصر ص ٤٦١ •

(٢) مجلة الهلال عدد نوفمبر ســنة ١٩١٤ ، والكتــاب الذهبى للهلال سنة ١٩٤٢ •

الحديثة ، فكان بحق من أوائل المؤلفين المعاصرين الذين اهتموا باستغلال ذلك في مؤلفاتهم . ولسنا هنا بسبيل التأريخ لادخال الصور والرسوم في طباعة الكتاب العربى ، فليس هنا موضعه ؛ ولكن الذى نريد أن نقرره أن زيدان قد توسع فى الجمع بين النص وبين الصورة أو الرسم الذى يوضحه أو يمثله . وقد امتلأت كتبه بهذه الصور واحتشدت احتشادا يلفت نظر المطالع لأول وهلة ، ففى « تاريخ مصر الحديث » مثلا نرى صورا كثيرة للفراعنة ، والنقود الاسلامية بوجهيها، وأبراج الحصار عند العرب، والمنجنيقات لرمى النبال ، بل نرى صورا ورسوما لصلاح الدين الأيوبى ، وسليمان القانونى ، ووالى مصر التركى فى موكبه بالقرن العاشر الهجرى . وقد اعترف زيدان فى مقدمة كتابه هذا بأنه زينه بنيف ومائتين من الصور والرسوم . وهو عدد هائل فى كتاب كهذا .

ولما كانت الخرائط فى كتب التاريخ لا تقل أهمية عن الصور والرسوم فقد حرص زيدان على أن يزود بها دائما مؤلفاته التاريخية . ففى « تاريخ مصر الحديث » أربع خرائط للقاهرة فى عصره ، ولمصر السفلى ، ومصر العليا ، والرابعة خارطة لمصر قبل الفتح الاسلامى .

ولما كان زيدان معاصرا لأعقاب الثورة العربية ، فقد دخل الاسكندرية سنة ١٨٨٣ وآثار الاحتلال الانجليزى فيها شاهدة ، كما كان مشاركا فى الحملة الانجليزية على السودان بطريق النيل، فانه قد أسهم فى تدوين الحوادث بأمانة وبعد عن التحيز ، وحرص

شديد • والحق أن ظروف ذلك العهد كانت تقتضى من المؤرخ الحذر الى حد بعيد • وعلى الرغم مما ألزم به زيدان نفسه من الدقة والضبط والحيدة المطلقة فى كتابة التاريخ فانه لم يسلم من النقد والاتهام بالبعد عن صفات المؤرخ • فقد قال عنه الدكتور محمد حسين هيكل فى « الجريدة » سنة ١٩١٢ : (••• زيدان كان أحرى الناس ـ على سعة معارفه التاريخية ـ بأن يختط هذه الطريقة ، ويرمى لهذا الغرض • وأول المطلوب من المؤرخ الذى يرمى لهذا الغرض أن يتحرى فى التاريخ الذى يكتب كل دقيقة وجليلة ، وأن يفسر الحوادث بالدقة والضبط • وقد رأينا أن صاحب تاريخ آداب العرب لم يقم بذلك على الوجه الأكمل (١) كما اتهمه مرة أخرى بأنه (لم يدخل الى روح العرب لكى يستطيع أن ينشرها أمام نظره ويفتش فيها ويعرف دقائقها ••) (٢) •

ويخيل الى أن الدكتور هيكل كان متأثرا فى هذا النقد بالحملات العنيفة التى شنها المصلح الهندى الشيخ شبلى النعمانى ، وشنها خصوم زيدان من المحافظين ليحولوا بينه وبين التدريس فى الجامعة المصرية القديمة •••

بقيت لنا كلمة حول زيدان المؤرخ وزيدان الأديب • وهو موضوع يثير كثيرا من التساؤل ، فقد ألف زيدان فى تاريخ الأدب العربى ، وألف فى القصص التاريخى ، وألف فى التاريخ ، فهل

---

(١) فى أوقات الفراغ لمحمد حسين هيكل ص ٢٣١ •

(٢) المصدر نفسه ص ٢٣٢ •

نعده مؤرخا أم أديبا ؟ ونترك زيدان الروائى لأنه يتأرجح بين الجبهتين : ومن الطريف أن تختلف النظرة الى زيدان بين الادب والتاريخ • فالأستاذ نسيم نصر ينشر فى مجلة الأديب عدد ١٢ سنة ١٩٥٠ بحثا طريفا يؤكد فيه وفى عنوانه أن جرجي زيدان كان أديبا في الغالب ، وان عد من المؤرخين • ولكنا نجد الأستاذ أنيس المقدسى يقرر فى معرض دراسته للرواية العربية أن زيدان مؤرخ أكثر منه صاحب فن (١) • على حين يقرر الدكتور حسين مؤنس أن اهتمامات جرجى زيدان الأولى كانت بالأدب أولا ثم جاء التاريخ بعد ذلك شيئا فشيئا • ومن هنا جاء التحول عند زيدان من الأدب الى التاريخ (٢) •

والذى نميل اليه أن زيدان لم يكن أديبا خالقا من أصحاب الفن الأدبى ، وليس من أصحاب الأساليب الأدبية المتميزة ، كما كان مصطفى المنفلوطى ، وأحمد حسن الزيات ، والشيخ عبدالعزيز البشرى ، ومصطفى صادق الرافعى وأضرابهم ، ولم يكن فى القصة صاحب فن قصصى بقدر ما هو مؤرخ يعتمد على القصة لينشر بين العامة معارفه التاريخية • ولكنه كان باحثا أديبا ومؤرخا للأدب العربى ورائدا فى تاريخ الآداب العربية ، وحسبه فى ذلك المجال أنه كان سابقا ، وأنه أتى فيه بما لا ينكر فضله على مر العصور ••

---

(١) الفنون الادبية واعلامها . ص ٥١٦ .

(٢) تاريخ التمدن الاسلامى ، الطبعة الاخيرة . جـ ١ ص ٧ .

كاتب التراجم

ان فصلا عن جرجى زيدان المؤرخ لا بد أن يعقبه فصل عن جـرجى زيدان كاتب التراجم • فان كتـــابه « تراجم مشـــاهير الشرق » يعد من المراجع الهامة التى يستأنس بها اليوم كل باحث وأديب حين يبحث عن الترجمة لعلم من أعلام الشرق والغرب فى القرن التاسع عشر •

والحق أن أعلام الشرق فى هذا الكتـاب ليســوا من الكثرة والأهمية بحيث يشاركون فى أهمية هذا الكتاب • فهم معدودون على أصابع اليد ، ومنهم ناصر الدين شاه ايران ، وعبد الرحمن أمير الأفغان ، ومنليك ملك الحبشة ، وتسى هسى أمبراطورة الصين ، وعلى بن حمود سلطان زنجبار ، ولى هونغ تشانغ ، والمركيز أيتو اليـابانى ، وقد وضعهم على أنهم يمثلون الملوك والأمراء ورجـال

الأدارة والسياسة في الشرق في القــرن التــاسع عشر ، أما بقيــة الأعلام في هذا الكتاب الجليل فهم مصريون وعرب يختلفون بين رجال الأعمــال ، وأهل الاصــلاح ، ورجال السياســة والادارة ، وأركان النهضة العلمية ، والمنشئين وكتاب الجرائد ، وسائر رجال العلم والأدب ، والشعراء .

ولم تكد تفلت شخصية عربية من شخصيات القرن الماضي الا ترجم لها زيدان على طريقته التي سيأتي وصفها . وقد راعى بالطبع أهل الشهرة ونباهة الذكر ممن ترجم لهم ، والا فان ذلك القــرن كان مملوءا بشخصيات كثيرة أخرى لم يجد لها مؤرخنا محلا في كتابه . ولن نسأل جرجي زيدان : لم اخترت من الرجال هذا ، وأبعدت ذاك ؟ فللمؤلف في هذا الميدان حججه وعذره وأســبابه الوجيهة . فقد ترجم الأستاذ يوسف أسعد داغر في الجزء الثاني من كتابه « مصادر الدراســة الأدبية » لعشرات من الأعــلام الراحلين حتى سنة ١٩٥٥ ، ولكنــه ترك عشرات آخــرين لم يترجم لهم ، وجعل بأسمائهم ثبتا في ذيل الكتاب واعتــذر من اســقاط ترجماتهم (بعد أن تضخم حجم الكتاب) .

وكتاب زيدان في التراجم يعد من كتب التراجم العامة التي يجمع فيها المؤلف بين أعــلام تختلف طبقــاتهم ، فهو ليس تراجم للشعراء وحدهم كما في طبقات الشعراء ، وليس تراجم للصحافين وحدهم كما في طبقات رجــال الصحــافة ، وليس تراجم للأدباء

وحدهم كما فى طبقات الأدباء ، ولكنه جمع من رجال القرن الذى يترجم لرجاله المشهورين مجمـوعة تتفق فى الشـهرة ، والمنفعة العامة ، وتختلف فى الفن الذى تمثله ٠

وتراجم جرجى زيدان مثل بقيـة كتبه ، نشرت على هيئـة فصول فى مجلة الهلال ، ففى كل عدد شخصية يترجم لها ويقدم لقراء الهلال سيرتها وحياتها ، ثم يجمع هذه الفصول فى نهاية الأمر فى كتاب مستقل ، كما فعل فى تاريخ التمدن الاسلامى ، وآداب اللغة العربية وغيرهما ٠ وكان الناس من قراء الهلال يتقبلون هذه التراجم بقبول حسن ، ويقبلون على قراءتها فى شوق وتلهف ٠ واقترح عليه لفيف من القراء أن يؤلف من تلك التراجم وأمثالها كتابا على حدة ، مع ما تقتضيه من الرسوم ونحوها ليسهل الاطلاع عليها والاعتبار بها (١) ٠

وقد قصد زيدان من ترجماته لطائفة من رجال الشرق غير العـرب أن يكون الشرق كله متمثلا فى كتـابه ، وأن يعرض من مظاهر السلوك والعمل عند هؤلاء الذين لا يعنينا تاريخهم ــ لبعدهم عنا ــ ما يكون فيه أحسن الأمثلة والنماذج على النجاح فى الحياة ٠ ولعله كان هنا ــ بوحى خفى ــ متأثرا بقـراءته فى كتـاب « سر النجاح » الذى كان من كتب مطالعاته الأولى ، فقد كان فيه تراجم لرجال من الغرب والشرق نجحوا فى الحيـاة بعـد ما كابدوه من

---

(١) كتاب « تاريخ التمدن الاسلامى » المقدمة ، ص ج ٠

عناء ••• ويبدو لنا تشبثه بأسرار النجاح فيما كتبه مثلا عن سليم صيدناوى ، فقد عقد بحثا لشروط النجـاح ، وأسـاس النجاح فى خلال الترجمة •

وقد توسع زيدان فى المراد من لفظة « الشرق » ، فلم يقتصر على رجال الشرق العربى ، وهم الذين يهتم بهم قراء الكتاب من العرب ، ولكنه مضى وأوغل فى الشرق حتى بلغ الشرق الأقصى ، فترجم لجماعة من الذين وصلت الينا شهرتهم من رجال ايران ، والهند ، والصين ، واليابان •

وجرى زيدان فى الترجمة للمشاهير على شأنه المعروف من التحرى والضبط ، ولم يكتف بالنقل والسماع فى الترجمة للأموات، ولكنه فى الترجمة للأحياء من معاصريه اعتمد على المعاينة والخبرة والمعرفة الشخصية ، وندعه يقول فى هذا بعبارته : (وقد بذلنا الجهد فى تحرى أعمال هؤلاء المشاهير ومناقبهم من أوثق المصادر ، وأصدق الروايات ، مع ما خبرناه بنفسنا ممن عاصرناهم وعرفناهم) (١) •

وتمتاز تراجم زيدان بأنه يذكر فى صدر كل ترجمة تاريخ ميلاد المترجم له ، وتاريخ وفاته • ولم يكد يخل بهذه القاعدة الا حين يترجم لواحد من الأحياء ، كما فعل فى ترجمته للخديو عباس الثانى ، أو حين لا يصل الى علمه تاريخ ميلاد المترجم له ، كما فعل

---

(١) تراجم مشاهير الشرق جـ ٢ ص ١ من المقدمة .

فى ترجمته للمعلم جرجس الجوهرى الذى كان كبيرا للمباشرين فى عهد محمد على ، والمعلم غالى الذى كان كبير الكتاب فى عهد محمد على ، والشيخ أمين الجندى الحمصى أشهر شعراء الغناء فى سورية ...

ولم يكن لزيدان طريقة موحدة فى كتابة تواريخ المواليد والوفيات للرجال ، فتارة يكتبها بالتاريخ الهجرى وحده مولدا ووفاة ، كما فى ترجمته لأحمد عرابى ، وجواد باشا ، والسيد جمال الدين الأفغانى ، والسيد عبد الله النديم . وتارة يكتبها بالتاريخ الميلادى وحده مولدا ووفاة ، كما فى تراجمه لأمين شميل، وأمين باشا فكرى ، والشيخ خليل اليازجى ، ووالده الشيخ ناصيف اليازجى ، وبطرس البستانى الموسوعى الشهير . وثالثة يجمع بين التاريخين الهجرى والميلادى ـ وأكثر ما يكون ذلك فى سنة الوفاة ـ كما فى ترجمته للشيخ محمد العباسى المهدى ، فقد ذكر تاريخ وفاته سنة ١٣١٥ هـ (١٨٩٧) ، وكما فى ترجمته لعبد الباقى العمرى شاعر العراق ، فقد ذكر تاريخ وفاته بالهجرى سنة ١٢٧٨، ووضع بجانبه التاريخ الميلادى المقابل ل سنة ١٨٦٢ م .

وكان زيدان مترجم الرجال حريصا على ايراد مؤلفات المترجم لهم ـ ان كانوا من أصحاب المؤلفات ـ بعد ايراد سيرة حياتهم . ونجد ذلك فى كل تراجمه لرجال النهضة العربية بلا استثناء . واذا كان ثبت هذه المؤلفات ليس جامعا ، فانه على كل

حال يمدنا بحصيلة كبيرة من مؤلفات من نود الحصول على تراجمهم. والكتاب من هذه الناحية مصدر لا بأس به لمعرفة تأليف أعلام العرب في القرن الماضي . وان كان لا يمدنا بمؤلفات من يترجم لهم بأكملها . ونلاحظ هذا ـ مثلا ـ في ترجمة للشيخ يوسف الأسير، فقد ذكر من كتبه : «رائض الفرائض» في الفقه ، و « شرح أطواق الذهب » ... للزمخشري ، ولم يزد عليهما كتابا ، مع أن مؤلفات الأسير تبلغ ثمانية ، كما أثبتها يوسف داغر في « مصادر الدراسة الأدبية » (١) .

واذا كان المترجم له شاعرا فان زيدان لا يكتفي بالاشارة الى شاعريته ومكانته من الشعر ، ولكنه يتبع ذلك بايراد النماذج المختلفة من شعره ، كما في تراجمه للشيخ ناصيف اليازجي ، وأحمد فارس الشدياق ، والمعلم بطرس كرامة ، وعبد الباقي العمري ، وعمر الأنسي ، والشيخ خليل اليازجي ، وعبد الله فكري، وأديب اسحاق . وقد يورد نماذج من النثر على ندرة في هذا المجال .

وتختلف تراجم زيدان للرجال بين الايجاز والتوسط والاطالة وفق تقديره لأهمية من يترجم لهم ، أو طبقا لسهولة المصادر عنهم ، أو لاعتبارات أخرى قد يراها الرجل . فقد بلغت

---

(١) مصادر الدراسة الادبية جـ ٢ ص ١٢٤ .

ترجمته لمدحت باشا الملقب بأبى الأحرار خمسا وثلاثين صفحة ، ولمصطفى كامل باشا ستا وعشرين صفحة ، وللشيخ محمد عبده عشر صفحات ، ولأديب اسحاق سبع صفحات ، ولأمين باشا فكرى صفحتين .

والتراجم فى كتاب « مشاهير الشرق » لزيدان كلها بقلمه ، الا ترجمة واحدة لأحمد عرابى بقلم عرابى نفسه وبخط يده . ويظهر أن الزعيم المصرى رأى أن يكتب لنفسه ترجمة خشية أن تذهب فيه آراء المترجمين كل مذهب . فبعث الى زيدان بترجمة شخصية لحياته . فلما جمع زيدان مواد كتابه « تراجم مشاهير الشرق » آثر ـ كما يقول ـ نشر هذه الترجمة دون سواها (١) .

ولم نلاحظ على زيدان فى تراجمه شططا فى الرأى ، أو جورا فى الحكم ، أو تطاولا باللسان . فلم يذكر أحدا بمثلبة ، ولا حاول أن يشير ولو اشارة خفية الى عيب من عيوب من يترجم له . ويذكرنا فى هذا بالمرحوم أحمد تيمور فى كتابيه (٢) للتراجم ، وكان زيدان لا يظهر من جوانب المترجم لهم الا الوجه المضىء المشرق ، فاذا انتقد انتقد بحسن نية وعن اقتناع بالرأى ، ولكن فى

---

(١) تراجم مشاهير الشرق جـ ١ ص ٢٥٤ .

(٢) هما كتاب « أعلام الفكر الاسلامى فى العصر الحديث » وكتاب « تراجم أعيان القرن الثالث عشر » . وقد كتبنا مقدمة تحليلية فى صدر الكتاب الاول .

عفة ونزاهة وموضوعية تامة ، كنقده ـ مثلا ـ للزعيم مصطفى كامل الذي يقول فيه : (والذى نراه فى الفقيد ـ رحمه الله ـ أنه كان متطرفا فى آرائه يعادى من ينتقدها أو يخالفه فيها • واذا حمل على خصمه بالغ في الغض من فضله ، وقد ينكر حسناته ولو كانت ظاهرة كالشمس •••) (١) • وانتقاد زيدان للزعيم مصطفى كامل فى تطرفه هو نتيجة لما كان يؤمن به زيدان نفسه من سياسة الاعتدال لحل المسألة المصرية • فهو معتدل هنا ، كما كان معتدلا فى حركة الاصلاح العثمانى • على أن اتهام مصطفى كامل بالتطرف لا يضيره ولا ينقص من قدره خردلة ، بل يزيده رفعة وتقديرا ، وما أكثر ما ينطبق على زعيمنا الراحل هذا البيت من الشعر القديم :

ان كان رفضا حب آل محمد

فليشهد الثقلان أنى رافضى ؟

على أن نقد زيدان لمصطفى كامل فى تطرفه الوطنى لم يمنع مؤرخنا المنصف من أن يقول فيه وفى سلوكه هذا القول الآتى : (وكان رحمه الله نزيه النفس ، عفيف الازار ، صادق اللهجة ، طاهر الجيب ، لا يلذ له من أحوال الحياة غير التفكير فى الغاية التى وقف قواه عليها ، وهى خدمة بلاده بأشرف السبل وأنفعها) (٢)•

وكان فى زيدان ميل الى وصف أشخاص المترجم لهم وهيآتهم

---

(١) تراجم مشاهير الشرق جـ ١ ص ٣٢٤ •

(٢) المصدر نفسه ص ٣٢٢ •

وملابسهم ، فوق وصفه لصفاتهم الخلقية والعقليـة والنفسية • ففي ترجمته لرفاعة الطهطاوى يقول : (وكان ـ رحمـه الله ـ قصـير القامة ، واسع الجبين ، متناسب الأعضاء ، أسمر اللون) • وفى ترجمته للدكتور فانديك يقول : (كان ربع القـامة ، مع ميـل الى القصر ، خفيف العضل ، سريع الحركة •••) وفى ترجمته للسيد جمـال الدين الافغانى بصفه بأنه (كان أسمر اللون بما يشبه أهل الحجاز ، ربعة ، ممتلىء البنية أسود العينين ، نافذ اللحظ ، جذاب النظر مع قصر فيه) والمقصود هنا بالقصر قصر النظر لا قصر القوام ، كما يدل عليه سياق الكلام بعد ذلك •

وهـكذا ترى دقة جـرجي زيدان مترجم الرجال فى وصف الملامح والسمات الشخصية ودقائق الأعضاء ، حتى ليخيل اليك أنه يقدم صورة دقيقة تامة الدقة لمن يترجم له •

وأعجب ما رأيناه في تراجم زيدان أنه كان يذكر فى غير قليل من الأعلام أماكن دفنهم ، كما فعل في ترجمتـه لخليـل اليازجى ، والشاعر العراقى عبد الغفار الأخرس (الذى دفن فى مقبرة الأمام الحسن البصرى خارج قصبة الزبير) ، والمفسر الكبير الشهابالألوسى صاحب « روح المعانى » (الذى دفن قرب والده) ، والشيخ يوسف الأسـير الذى (دفن فى مقبرة الباشـورة ببيروت) ، وان كان لم يذكر لنا مكان دفن عبد الرحمن الكواكبى الذى ترقد جثته الآن فى مقابر الوزير بالقاهرة •

رائد فى تاريخ الأدب

يذكر جرجى زيدان فىمقدمة الجزء الأول من « تاريخ آداب اللغة العربية » أنه أول من وضع كتابا متكاملا فى تاريخ الأدب العربى ، وأنه أول من سمى هذا العلم بتاريخ آداب اللغة العربية .

واذا كان كتاب زيدان فى الآداب العربية قد ظهر على هيئة كتاب قائم بذاته على حدة فى سنة ١٩١١ ، فان هذا لا يعنى أن هذا التاريخ كان أول استعمال لعبارة تاريخ الآداب العربية ، ففى سنة ١٨٩٤ وهى السنة الثانية من تاريخ صدور مجلة الهلال كان جرجى زيدان ينشر فصولا فى مجلته تحت عنوان « تاريخ آداب اللغة العربية » ، وهى الفصول التى وسعها من بعد ، وجعل منها كتابا مستقلا فى أجزائه الأربعة الضخام . ومن هنا نستطيع أن نقول مع زيدان انه كان أول واضع لهذه التسمية . ومن هنا أيضا نستطيع

أن نقول ان كتاب جرجى زيدان يعد رائدا فى التأليف فى تاريخ الأدب العربى على نهج لم يسبقه فيه أحد ...

ومن الحق أن نقول ان جهدا كريما فى هذا الميدان قد سبق به الشيخ حسين المرصفى صاحب كتاب « الوسيلة الأدبية » ، فقد خطا المرصفى خطوة ـ على صغرها ـ فى ميدان التأريخ للأدب العربى على حسب العصور ، لا على حسب الموضوعات ، ودراسة النصوص كما كان يفعل القدماء . وهذه حقيقة لا يجوز اغفالها فى هذا المقام .

وجاء بعد الشيخ حسين المرصفى تلميذه فى دار العلوم ، المرحوم حسن توفيق العدل ، الذى تخرج فى الدار سنة ١٨٨٧ ، أى قبل وفاة أستاذه المرصفى سنة ١٨٩٠ بثلاث سنوات ، فتنبه الى ما فى التأريخ للأدب العربى حسب العصور من مزية ، وأكد هذا المعنى فى نفسه ما أتيح له من اختياره عضوا فى بعثة دار العلوم الى ألمانيا ، ومن اتصاله برجال الاستشراق هناك ، وخاصة «بروكلمان» الذى كان قد وضع كتابه فى تاريخ الأدب العربى وفق العصور وان كان لم يظهر مطبوعا الا فى سنة ١٨٩٨ . وصادفت هذه الطريقة هوى واعجابا عند حسن توفيق العدل ، فلما عاد من ألمانيا ليشتغل أستاذا للغة العربية فى معهده الذى تخرج فيه ، قدم هذه الطريقة الى طلبته فى دار العلوم على هيئة مذكرات ، وأعطاها عنوانا

هو « تاريخ آداب اللغة العربية » . وقد طبعت بعد وفاته سنة ١٩٠٦ بمطبعة مدرسة الفنون والصنائع الخديوية (١) .

وجاء المرحوم محمد بك دياب ـ وهو من رجال دار العلوم أيضا ـ فأصدر كتابه المعنون « تاريخ آداب اللغة العربية » ، وقد ظهر فى جزءين سنة ١٨٩٩ ، ١٩٠٠ . وهكذا انتهى القرن التاسع عشر بكتب ثلاث فى تاريخ الأدب العربى حسب العصور ألفها ثلاثة : واحد من أساتذة دار العلوم ، واثنان من أبنائها المتخرجين فيها .

ومن هذا البيان الوجيز نستطيع أن نقرر أن جرجى زيدان كان أول مؤسس لعلم تاريخ الآداب العربية وأول مؤلف فيه بطريقة منهجية ، وأن سنة ١٨٩٤ هى السنة الفاصلة فى بدء الكتابة فى هذا الموضوع وبدء تسميته .

ومنذ الخطوة الرائدة التى خطاها زيدان فى هذا الميدان فى القرن التاسع عشر جاء القرن العشرون ، وبدأ الاهتمام بالتأليف فى تاريخ الأدب العربى يظهر بوضوح . ففى سنة ١٩٠٨ صدر كتاب للشيخ محمد حسن نائل المرصفى عنوانه « أدب اللغة العربية » ، وقد رتبت فيه الدراسات على وفق العصور من الجاهلية الى ما بعدها . وفى سنة ١٩٠٩ ظهر كتاب « أدبيات اللغة العربية »

---

(١) مجلة الكتاب ـ عدد يوليو سنة ١٩٤٧ . من بحث جيد للمرحوم الاستاذ محمد عبد الجواد .

للأساتذة محمد عاطف ، ومحمد نصار ، وعبد الجواد عبد المتعال من رجال دار العلوم ، وفى سنة ١٩١١ ظهر كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » لجرجى زيدان فى كتاب على حدة ، فكان ذلك تجديدا لدراسة ولعلم ظهر من قبل سنة ١٨٩٤ على يد زيدان نفسه وفى أعداد من مجلة الهلال .

ونرجو من هذا البيان أن تكون قد اتضحت للقارىء قضية « أولية » علم تاريخ الأدب العربى وأولية تسميته ، وصاحب الحق فى هاتين القضيتين هو مؤرخنا جرجى زيدان .

وقد أبان جرجى زيدان أغراضه من هذا الكتاب وطريقة تأليفه . وبعد أن فصل الأغراض الستة التى وضع الكتاب من أجلها عاد فأجمل الغرض الرئيسى من الكتاب فى قوله : (... أن يكون لهذا الكتاب فائدة عملية ، فضلا عن الفائدة النظرية ، بحيث يسهل على طلاب المطالعة معرفة الكتب الموجودة ومحل وجودها وموضوع كل منها وقيمته بالنسبة الى سواه من نوعه . فهو أشبه بدائرة معارف ، تشتمل على تاريخ قرائح الأمة العربية وعقولها وتراجم علمائها وأدبائها وشعرائها ومن عاصرهم أو عاملهم من كبار الرجال، ووصف المؤلفات العربية على اختلاف مواضيعها) .

أما خطة الكتاب وتقسيم موضوعه فقد وضحها زيدان فى مقدمة الجزء الأول ، وأبان أنه كان بين أمرين : اما أن يقسم الكتاب حسب العلوم ، أو حسب الأعصر . ومعنى تقسيمه حسب العلوم

أنه يبدأ بموضوع الشعر ـ مثلا ـ فيستوفيه من أول عصور الجاهلية الى العصر الحديث فى مكان واحد • ثم يأتى بموضوع كالخطابة فيستوفى الكلام فيه من أول الجاهلية الى زماننا هذا ، ثم يأتى بموضوع كالفقه فيستوفى الكلام فيه من أول نشأته وحدوثه فى الاسلام الى وقتنا هذا • أما القسمة حسب الأعصر فيراد بها الكلام عن العلوم والفنون والموضوعات المختلفة فى عصر واحد ، والانتقال الى العصر الزمنى الذى يليه وهكذا • وقد آثر زيدان التقسيم حسب العصور ، فبدأ بالعصر الجاهلى ، فعصر الراشدين ، فالعصر الأموى ، فالعباسى ، فالمغولى ، فالعثمانى ، فالعصر الحديث • وهذا هو التقسيم الذى جرى عليه أكثر المؤرخين للأدب العربى بعد زيدان •

وبالطبع كان جرجى زيدان يسير على نهج الأوربيين والمستشرقين فى تاريخ الآداب العربية ، وقد أفاد فى هذا السبيل بجهود من صنفوا فى هذا الباب من الغربيين ، ولم يخف الرجل علينا شيئا من الكتب الأوربية التى استند اليها ، وعول عليها فى تأريخه للأدب العربى ، حتى يزعم للقارىء أو يوهمه بأن هذه الدراسات كانت من ثمرات فكره ، بل أعلن فى الصفحات الأولى من الكتاب أسماء الكتب الفرنسية والانجليزية والألمانية التى رجع اليها ، ونهل منها ، ومن هذه الكتب كتاب سديو المطبوع سنة ١٨٧٧ ، وكتاب هيوار المطبوع سنة ١٩٠٢ ، وكتاب غوستاف لوبون

المنشور ١٨٨٤ ، وكتاب نيكلسون المنشور سنة ١٩٠٨ ، وكتاب هامر برجستال المنشور سنة ١٨٥٦ ، وكتاب وستنفيلد المنشور سنة ١٨٨٢ ، وكتاب بروكلمان الذى ظهر سنة ١٨٩٨ ، سنة ١٩٠٢ .

واذا كان استخدام زيدان للمصادر الأوروبية ، ولمناهج المستشرقين فى الأدب العربى وأدب الاسلام قد أفاد من ناحية ، وزوده بسيل من المعلومات والمواد والتنظيم من ناحية ثانية ، فانه من ناحية ثالثة قد جر عليه كثيرا من نقد الناقدين ، ويكفى بأن الدكتور محمد حسين هيكل قد اتهمه بأنه (لم يدخل الى روح العرب لكى يستطيع أن ينشرها أمام نظره ، ويفتش عليها ، ويعرف دقائقها) (١) ولا يعجز كاتب عن أن يدخل الى روح العرب الا اذا كان متأثرا بأرواح غير عربية ... كما أن انتقادات الأب أنستاس مارى الكرملى لهذا الكتاب فى مجلة « لغة العرب » ، وانتقادات الأب لويس شيخو اليسوعى له فى مجلة « المشرق » كانت تنصب على هذه الناحية (٢) ، بالاضافة الى غيرها من النواحى المتعددة .

ونستطيع أن نقول ان كتاب « تاريخ التمدن الاسلامى » لجرجى زيدان هو نوع من تاريخ الأدب العربى حسب الموضوعات لا حسب العصور . وان كانت الموضوعات هنا ليست موضوعات أدبية تتصل بالشعر والنثر والخطابة والكتابة والتأليف والثقافة

---

(١) فى أوقات الفراغ . ص ٢٣٢ .
(٢) دائرة المعارف الاسلامية . مادة زيدان ص ٧ .

وما اليها ، ولكنها مسائل تتصل بالحضارة والتمدن . وهي مسائل وموضوعات متعددة . وكان النهج الذى اتبعه زيدان فى الكتابين واحدا ، وان كان المرحوم أحمد أمين يرى أن الكتابة فى تاريخ الآداب العربية أشق وأعقد (لأنه يتطلب احاطة تامة ، وعلما واسعا بما في خزائن الكتب فى الأقاليم المختلفة شرقية وغربية ، ويشعر بعبء هذا العمل ــ يعنى التأريخ للأدب العربى ــ من يعلم أن الأمم الاسلامية فى عصورها المختلفة من أكثر الأمم انتاجا للعلماء والأدباء والشعراء . وعلماؤها وأدباؤها أكثر من الناس تأليفا وانتاجا ، فالتعريف بهم وبآثارهم فوق طاقات الجماعات بله الأفراد) (١) .

بقى أن نقول ان هذا النهج الجديد فى تاريخ الآداب العربية، الذى ارتاده زيدان لأول مرة مقتفيا أثر جماعة من علماء الاستشراق، قد سار عليه بعده فى القرن العشرين جماعة من أساتذة الأدب العربى والمؤلفين والباحثين منهم الأساتذة مصطفى صادق الرافعى ، ومحمد حسن نائل المرصفى ، والمرحوم محمد عاطف(٢) وزميلاه، كما سبق القول ، والمرحوم الشيخ أحمد الأسكندرى فى كتابه « الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه » ، والمرحومون محمود مصطفى ، والسباعى بيومى ، ومحمد هاشم عطية ، وأحمد حسن

---

(١) الكتاب الذهبى للهلال .

(٢) نرجو ان يفرق بين محمد عاطف هذا ، وبين المرحوم محمد عاطف بركات الذى كان ناظرا لمدرسة القضاء الشرعى .

الزيات صاحب « الرسالة » ، وأصحاب كتابى « المفصل » و « المجمل » من رجال وزارة التربية والتعليم، والأب حنا فاخورى، والدكتور شوقى ضيف . وهى جهود تلاحق العمل العظيم الذى بدأه جرجى زيدان ، وتتوسع فى الميدان طبقا لما جد فى هذا الحقل من دراسات ...

زيدان والروايات التاريخية

من منا لم يقرأ واحدة أو أكثر من سلسلة الروايات التاريخية الاسلامية لجرجى زيدان ؟ ان كثيرا من كبار أدبائنا المعاصرين وكبار كتابنا ومفكرينـا قد قرأوا روايات زيدان كلهـا لم يستثنوا منهـا واحدة • فهذا الدكتور محمد حسين هيكل يصرح بأن قراءة هذه الروايات قد خلقت شيئا من الألفـة بينه وبين مجلة « الهلال » • وكثيرا ما كان يقرأ الملاحق والفصول التى تنشر من هذه الروايات فى أجزاء متعاقبة من الهلال ، فيجد من قراءتها سرورا ، وخاصـة فى أثناء الأجازات ، ويجد نفسـه مدفوعا الى قراءة هذه الروايات كاملة (١) •

ولقد استطاع زيدان أن يكتسب برواياته التاريخية جمهورا

---

(١) الكتاب الذهبى للهلال •

من القراء لا يحصى عددهم ، من أصحاب الثقافات ومن متوسطي الثقافة ، وممن يجدون في الروايات متعة وتسلية • واستطاع منذ ظهرت له أول رواية تاريخية أن يظفر برضا القراء ، مما شجعه على المضي في كتابة السلسلة حتى رواية « شجرة الدر » التي أخرجها قبيل وفاته بشهور •

وعلى ذكر أولى روايات زيدان التاريخية نستطيع أن نقرر أنها كانت رواية « المملوك الشارد » التي ظهرت في أول طبعاتها سنة ١٨٩١ • ونحن هنا نثق برواية الياس زخورة (١) صاحب « مرآة العصر » وهو من أقدم مصادرنا عن الترجمة لحياة زيدان ، كما نؤكد روايته برواية صديقنا المرحوم طاهر الطناحي (٢) ، ورواية الدكتور محمد يوسف نجم الذي (٣) يقول : (أقدم زيدان على محاولته الأولى : المملوك الشارد) • ويظهر أن خطأ مطبعيا في كتاب « تطور الرواية العربية الحديثة » للدكتور عبد المحسن طه بدر قد أوقعنا في عشوة من الأمر • ففي فهرسه الزمني للروايات العربية التي ظهرت بمصر من سنة ١٨٧٠ الى سنة ١٩٣٨ يذكر أن روايات « أرمانوسة المصرية » و « عذراء قريش » و « ١٧ رمضان » لجرجي زيدان قد صدرت في ١٨٨٩ م، وهو خطأ طباعي واضح بأدنى بصر ، وصوابه سنة ١٨٩٩• ولو أننا

(١) مرآة العصر ص ٤٦٢ .

(٢) عصاميون عظماء . ص ٧٥ .

(٣) القصة في الادب العربي الحديث ص ١٨٨ .

تابعنا هذا الخطأ وجاريناه لكان معنى هذا أن هذه الروايات الثلاث كانت سابقة فى الوجود على رواية « المملوك الشارد » ، وهو ما لم يكن •

هذا تصحيح لم نجد منه بدا • وهناك تصحيح آخر نرى من الحق ألا نسكت عليه لاعتبارات الصداقة التى تربطنا بالأستاذ الكبير أنيس المقدسى ، فقد ذكر فى كتابه « الفنون الأدبية وأعلامها » أن زيدان ترك للأجيال فى باب الرواية ـ أو القصة ـ التاريخية احدى وعشرين (١) رواية • والصواب أنها ثلاث وعشرون •

ونجد من باب الأمانة للتاريخ أن نسجل هنا أسماء روايات زيدان التى اضطرب مؤرخو الأدب الحديث فى بيانها وعددها • فقد سجلها الأستاذ يوسف داغر عشرين رواية (٢) ، فنقص منها ثلاثا ؛ وسجلها مترجم حياة زيدان فى آخر الجزء الرابع من « تاريخ آداب اللغة العربية » اثنتين وعشرين رواية ، فنقص منها واحدة • ولم يعن باحث نفسه بحصرها وضبط عددها واستكمال أسمائها • وأليكم بيانها كاملة : فتاة غسان ـ أرمانوسة المصرية ـ عذراء قريش ـ ١٧ رمضان ـ غادة كربلاء ـ الحجاج بن يوسف ـ فتح الأندلس ـ شارل وعبد الرحمن ـ أبو مسلم الخراسانى ـ العباسة أخت الرشيد ـ الأمين والمأمون ـ عروس فرغانة ـ أحمد

---

(١) الفنون الادبية ص ٥١٦

(٢) مصادر الدراسة الادبية ليوسف داغر ـ ص ٤٤٥ .

ابن طولون ـ عبد الرحمن الناصر ـ فتاة القيروان ـ صلاح الدين ومكائد الحشاشين ـ شجرة الدر ـ الانقلاب العثماني ـ المملوك الشارد ـ استبداد المماليك ـ أسير المتمهدى ـ محمد على ـ جهاد المحبين .

ولا شك أن روايات زيدان التاريخية كانت حدثا جديدا فى القرن التاسع عشر ، فهى نشر للحقائق التاريخية الاسلامية على سبيل الرواية تسهيلا للمطالعة كما يقول صاحب « مرآة العصر » ، مما حدا بالكثيرين من مؤرخى الأدب الحديث أن يعدوا زيدان رائدا فى هذا الميدان . وقد أوجب له الأستاذ أنيس المقدسى حقا فى أن يلقب بامام هذا الفن فى أدبنا الحديث (١) ، كما قال عنه الدكتور سهيل ادريس (انه دون منازع خالق الرواية التاريخية عندنا) (٢)، ووصفه الدكتور طه حسين بأنه (هو الذى نقل الى الأدب العربى مذهبا من مذاهب الأدب الأوربى ، هو القصص التاريخى) (٣) ، بل ذهب اثنان من رجال التاريخ عندنا هذا المذهب ، فالدكتور صالح أحمد العلى يقرر أن زيدان كان رائد الروايات التاريخية (٤) . والمرحوم الدكتور جمال الدين الشيال يؤكد أن (جرجى زيدان كان أول من كتب القصة التاريخية) (٥) .

---

(١) الفنون الادبية وأعلامها ـ ص ٥١٧ .

(٢) القصة فى لبنان لسهيل ادريس ص ١٩ .

(٣) أعلام من الفكر والادب . ص ٨٧ .

(٤) الادب العربى فى آثار الدارسين . ص ٤٤ .

(٥) التاريخ والمؤرخون في مصر " ٢٢١ .

على أننا لو أردنا الدقة في التعبير فان (أولية) جرجي زيدان و (ريادته) للرواية التاريخية يجب أن ننظر اليها نظرة أخرى. نعم : لقد كان عمل زيدان في هذا المجال مما لا ينكر عظمه وضخامته وفضله ، في ميدان كاد يكون خاليا من هذا الفن الأدبي المعين . ولكن اعتزازنا وانبهارنا بالدور العظيم الخصب الذي قام به زيدان هنا ، لا يجوز أن ينسينا حق (الأولية) لسليم البستاني ، ابن العلامة بطرس البستاني ، الذي ظهرت له في هذا المجال روايتان تاريخيتان سبقتا روايات زيدان بأكثر من عشرين عاما . ففي سنة ١٨٧١ ظهرت قصة « زينوبيا » لسليم البستاني ، وفي سنة ١٨٧٤ تلاها ظهور روايته الثانية : « الهيام » في فتوح الشام » . ولعل أول من أنصف سليما في هذه الحقيقة الأستاذ مارون عبود الذي يقول عن الروايات التاريخية عموما : (لقد سبق الى مثلها سليم البستاني ، ولكنها لم تكن كروايات زيدان (١) فنا) ، ثم يقول عن سليم البستاني في موطن آخر : (ولعل سليما هو أول من كتب رواية تاريخية) . كما نجد الدكتور محمد يوسف نجم يقول من فصل له عن القصة التاريخية : (وأول من حاول محاولة كبيرة في كتابة هذا اللون من القصة كان سليم البستاني) (٢) . ثم يجيء عبد المحسن طه بدر بعد مارون ونجم فيقول : (ولعل ما دفع

---

(١) رواد النهضة الحديثة . ص ١٧١ .

(٢) القصة في الادب العربي الحديث . ص ١٧٥ .

جرجى زيدان الى التركيز على الرواية التاريخية يرجع الى بعض المحاولات التى سبقته فى هذا الميدان ، وأهمها محاولة سليم البستانى ...) (١) .

واذا كان زيدان فى تاريخ الأدب وتاريخ التمدن قد نقل عن الأوربيين مناهج وطرائق فى البحث والتحليل ، والاستنتاج ، والتنسيق ، والتنظيم ، فانه فى رواياته التاريخية قد نقل فنا ، لا مناهج ، واستطاع أن يسهم فى تكوين هيكل ضخم للقصة فى الأدب العربى الحديث .

ولا بد أن نرجع الى جرجى زيدان نفسه اذا أردنا أن نعرف شيئا من آرائه فى ايثاره لكتابة الرواية التاريخية ، والجمع بينها وبين دراساته الأدبية والتاريخية الجادة الرصينة . هل كان صاحبنا يهدف من وراء ذلك الى التسلية والترفيه ، أم كان يهدف الى التعليم ؟ لنستمع اليه وهو يقول فى مقدمة رواية الحجاج بن يوسف: (وقد رأينا بالاختبار أن نشر التاريخ على أسلوب الرواية أفضل وسيلة لترغيب الناس فى مطالعته ، والاستزادة منه . وخصوصا لأننا نتوخى جهدنا فى أن يكون التاريخ حاكما على الرواية ، لا هى عليه ، كما فعل بعض كتبة الأفرنج ، وفيهم من جعل غرضه الأول تأليف الرواية ، وانما جاء بالحقائق التاريخية لالباس الرواية ثوب

(١) تطور الرواية العربية الحديثة . ص ٩٣ .

الحقيقة ، فجره ذلك الى التساهل فى سرد الحوادث التاريخية بما يضل القراء • وأما نحن فالعمدة فى روايتنا اعلى التاريخ ، وانما نأتى بحوادث الرواية تشويقا للمطالعين ، فتبقى الحوادث التاريخية على حالها ، وندمج فيها قصة غرامية تشوق المطالع الى استتمام قراءتها ، فيصح الاعتماد على ما يجىء فى هذه الروايات من حوادث التاريخ ، مثل الاعتماد على أى كتاب من كتب التاريخ ، من حيث الزمان والمكان والأشخاص ، الا ما تقتضيه القصة من التوسع فى الوصف ، مما لا تأثير له على الحقيقة ، بل هو يزيدنا بيانا ووضوحا بما يتخلله من وصف العادات والأخلاق) •

هذا هو رأى زيدان فى الرواية التاريخية ومذهبه فى كتابتها ، وهو هنا يكاد يضع خطا فاصلا بين القصة وبين التاريخ ، ويجعل للتاريخ المحل الأول من الاعتبار • وأغلب الظن أن صفته كمؤرخ قد غلبت عليه وهو يكتب الرواية التاريخية ، حتى لنراه يضع فى صدر الرواية من رواياته ـ بل وفى صفحات منها ـ المصادر والمراجع التى عول عليها فى كتابة الرواية ، كأنه يضع مصادره ومراجعه لمبحث من مباحث التاريخ والأدب !

والذى عليه يقينى أن زيدان فى رواياته لم يكن روائيا ولا هو من سبيل الروائيين ، ولكنه كان مؤرخا ، ومعلما لتاريخ العرب والاسلام ، أراد أن يعلم العرب تاريخهم بطريقة مشوقة جذابة ، وأن يحملهم على قراءة تاريخهم حملا بلا مشقة ولا استثقال ، فعمد

الى الرواية وهو ليس بموهوب فى الفن القصصى ، ولهذا امتلأت رواياته بالتفكك وتقطيع الأوصال ، وفقدان الحبكة ، والاستطراد الممل ، ومحاولة التعليم ، وسرد الحوادث العجيبة المتابعة دون اهتمام بالشخصيات .

ولم يكن زيدان جاهلا بالقواعد الصحيحة لكتابة الروايات عند الغربيين ، ويبدو من كلامه المتناثر هنا وهناك أنه عليم بهذه الأصول الفنية ، ولكن غرضه من تعليم التاريخ عن طريق الرواية كان أبعد وأعلى من فنية الرواية ، وخاصة أنه كان ينزع فى نشر العلم والتاريخ والأدب نزعة شعبية كما سيجىء .

ومن هنا يقرر أغناطيوس كراتشكوفسكى أن روايات زيدان التاريخية (لا تروق كثيرا فى نظر الذوق الأوربى ، ذلك أن أسلوب انشائها عتيق وعاطفى بعض الشىء) .

وروايات زيدان كلها تاريخية ، الا واحدة تدخل مجال الاجتماع والعاطفة ، وهى رواية « جهاد المحبين » ، وضعناها فى آخر الثبت الذى ذكرناه آنفا ، تمييزا لها من الاثنتين وعشرين رواية التاريخية . ومن رواياته التاريخية سبع عشرة رواية تتناول تاريخ العرب والاسلام حتى عصر صلاح الدين الأيوبى ، وأربع روايات تتصل بتاريخ مصر الحديث ، وواحدة تدور حول موضوع الانقلاب العثمانى . أما روايته الاجتماعية الوحيدة « جهاد المحبين »

التى ظهرت سنة ١٨٩٣ ، فيعدها بعض النقاد (من المحاولات الناجحة فى القصة الاجتماعية) (١) ، وتدور حوادثها فى سنة ١٨٨٧ ، وتجرى الوقائع ما بين القاهرة والاسكندرية وحلوان • وتعالج قضايا عاطفية ، وتتأزم فيها الأزمات بين الحب والزواج وصفا للواقع الذى كان يعيشه المجتمع المصرى فى أواخر القرن التاسع عشر • ويكاد أسلوب زيدان هنا يشبه أسلوبه فى رواياته التاريخية لأن الفن القصصى عنده كان فى المحل الثانى بعد تعليم التاريخ •

ولقد صادفت روايات زيدان التاريخية من الرواج والقبول ما لم يظفر به كتاب فى ذلك العهد • وظلت حتى بعد وفاته تعاد طبعاتها مرارا فيتلقفها الناس جيلا بعد جيل ، ولم ينقطع الطلب عليها حتى يومنا هذا ، حيث ظهرت فى طبعات أنيقة بأغلفة تحمل صورا ملونة • ويؤكد كراتشكوفسكى أن كل روايات زيدان التاريخية تقريبا قد ترجمت الى الفارسية ، والتركية ، والهندستانية ، والأذربيجانية ، كما أن بعضها ترجم الى لغات شرقية أخرى غير هذه ، وكان نصيب بعضها الترجمة الى لغات أوربية ، فترجمت رواية « العباسة أخت الرشيد » الى الفرنسية سنة ١٩١٢ مع مقدمة بقلم كلود فارير الروائى الفرنسى المشهور وتلميذ بير لوتى •

وطالما جذبت رويات زيدان التاريخية اهتمام القراء من أدبائنا

(١) القصة فى الادب العربى الحديث • ص ١٢٣ •

الذين كانوا فى العقد الأول من القرن العشرين فى مرحلة الطلب للعلم . وطالما فتنتهم حتى كادت تشغلهم عن دروسهم . وما ألطف الدكتور طه حسين وهو يقول فى هذا الصدد : (ومهما أنس فلن أنسى أنى كنت فى أيام الصبا والشباب أبداً فى قراءة القصة التاريخية من قصص جرجى زيدان ، فلا أكاد أتقدم فى قراءتها شيئا حتى أفتن بها ، واذا هى تشغلنى عن دروس الأزهر حتى أتمها ، واذا هى تأخذ على تفكيرى وقتا طويلا بعد اتمامها ..) (١)

وعلى الرغم من القبول الذى لقيته روايات زيدان فى تاريخ العرب والاسلام ، فانها لم تسلم من النقد وقت ظهورها وحتى يومنا هذا . ولم يكن زيدان يضيق بالنقد ولا يرى أنه يحط من قدر المنقود ولا من قدر الكتاب ، ولكنه دليل على قدره . ويستطيع القارىء اليوم - بعد حملات النقد التاريخية التى وجهت الى زيدان - أن يقرأ نقدا موضوعيا فنيا لرواياته التاريخية ، ولروايته الاجتماعية الوحيدة فى كتابين عالجا موضوع الرواية والقصة فى الأدب العربى الحديث ، وهما كتابا الدكتورين محمد يوسف نجم ، وعبد المحسن طه بدر ، فان مجال النقد والتحليل هناك أوسع وأشمل منه فى مجال محدود كمجالنا فى هذا الكتاب .

ولعل نموذجا من نقد بعض زملاء زيدان الروائيين فى ذلك

---

(١) الكتاب الذهبى للهلال .

العصر يعطينا فكرة عن النقد ومفهوم القصة والرواية منذ أكثر من نصف قرن • ففي عدد الهلال من نوفمبر سنة ١٩١٤ نرى العالم الرياضي والكاتب الروائي نقولا الحداد يتناول فن الرواية عند زيدان قائلا : (فالفقيد كقصصي كان يرتب القصة ، والحوادث فيها مدهشة ، وآخذة بعضها برقاب بعض ، ومنساقة كلها الى ملتقى واحد هي النتيجة التي تتهافت اليها عواطف القارىء ، ومندمجة اندماجا يقررها في ذهن القارىء كحقائق راهنة ، وما هي الا حقائق تاريخية راهنة ، اللهم الا النزر مما يختلقه من الأشخاص والحوادث تتمة لترتيب القصة) (١) •

على أن كتابا ثالثا للدكتور محمود حامد شوكت لا يجوز اغفاله هنا ، فقد تناول القصة التاريخية عند زيدان ، وخلص من كلام زيدان نفسه الى الحكم عليه بأنه (لا يمثل فلسفة خاصة يصورها التاريخ ، وانما يكتفي بالجمع والتنسيق واحياء الصورة احياء يسيرا يقوم على الشهرة التاريخية للموضوع وللشخصيات ، وقد وقف زيدان بذلك عند بداية طريق واصله من بعده كتاب القصة التاريخية) (٢) •

---

(١) مجلة الهلال سنة ١٩١٤ ص ١٨٣ •

(٢) الفن القصصي في الادب المصري الحديث : للدكتور محمود حامد شوكت . ص ١٤٤ .

بين الصحافة والصحافة الأدبية

الصحافة بمفهومها العام تعنى الصحف السياسية الاخبارية ، وصحافة الرأى التى تهتم بالتعليق على الأخبار والأحداث السياسية. وقد شهد القرن التاسع عشر مولد الصحافة العربية بما ليس هنا مجال تفصيله . وانبثق من الصحافة نوع آخر هو الصحافة الأدبية التى تهتم بمسائل الأدب والعلم والثقافة والفكر والفن ، ولا شأن لها بالأخبار والحوادث والسياسة الا ما كان من معالجة بعض القضايا السياسية الكبرى التى قد تهملها بعض المجلات الأدبية اكتفاء منها برسالة الأدب والعلم .

وقد يلتقى فى شخص واحد ميلان الى الصحافة العامة والصحافة الأدبية ، كما نجده عند الدكتور فارس نمر الذى كان يشتغل فى صحيفة المقطم بالسياسة ، وفى مجلة المقتطف بالعلم

والفكر ، على حين اكتفى زميله وشريكه الدكتور يعقوب صروف بمسائل العلم والفكر فى « المقتطف » ، وترك السياسة لصاحبه .

ولسنا هنا بمقام التفصيل والتمثيل فى هذا الموضوع الذى يخرج بنا عن الغاية من هذا الفصل ، ولكننا سقناه لنوضح موقف المؤرخ جرجى زيدان من الصحافة العامة بعد أن اتضح دوره العظيم فى الصحافة الأدبية بانشائه « مجلة الهلال » التى ظل يحررها ويخدمها اثنين وعشرين عاما .

حينما هاجر زيدان الى مصر سنة ١٨٨٣ كان همه أن يلتحق بمدرسة الطب المصرية حتى يتم دراسة الطب التى انقطعت عليه فى المدرسة الكلية الأمريكية ببيروت . وان كان قد أدى امتحانا فى علوم الصيدلة ببيروت أمام لجنة خاصة حرة بعيدة عن سلطات المدرسة الكلية . وما كان فى ذهن الفتى يومئذ أن ينصرف عن دراسة الطب فى مصر بأى ثمن ، فقد كانت تلك الدراسة أمنية نفسه . ونزل الفتى من الباخرة التجارية التى أقلته من بيروت الى الأسكندرية فى صباح يوم من شهر أكتوبر سنة ١٨٨٣ . وأقام بالثغر زمنا يكفى لراحته من عناء الرحلة بالبحر ، ثم اتجه الى القاهرة ميمما وجهه شطر مدرسة الطب لينجز أمامها أوراق تقديمه . غير أن طول مدة الدراسة فى القصر العينى قد حول عزمه عن صناعة الطب جملة .

ويظهر أن القدر في هذه اللحظة كان يدبر له مسألة اشتغاله بصناعة القلم ، فوجد من نفسه دافعا لأن يشتغل بالصحافة ، ولم يكن في مصر في ذلك التاريخ صحف ولا صحافة ، الا صحيفة يومية واحدة اسمها « الزمان » يملكها رجل أرمني اسمه « علكسان صرافيان » انتهز فرصة أحداث الثورة العرابية فأنشأها في مارس سنة ١٨٨٢ ، وظلت تصدر عامين وبعض أشهر الى أن التقى به جرجي زيدان وعرض عليه أن يكتب فيها ، فكلفه الرجل تحريرها .

وقد يطفر هنا سؤال : فأين صحيفة « مصر » التي أنشأها أديب اسحاق في ديسمبر سنة ١٨٨١ ؟ لقد كانت معطلة بعد أن أبعد صاحبها الى بيروت عقب الحوادث العرابية، أما صحيفة «الوطن» التي أنشأها ميخائيل عبد السيد سنة ١٨٧٧ فقد توقفت حينا بعد الاحتلال ، ولم تعد الى الظهور الا في سنة ١٩٠٠ . وظلت القاهرة خالية من الصحافة اليومية منذ أيام الاحتلال الى أن ظهر « المقطم » سنة ١٨٨٩ .

لهذا لا نبعد عن الحق اذا قلنا ان مصر في ذلك الحين كانت خالية من الصحافة والصحف اليومية . على كل حال ظل جرجي زيدان يشتغل بالتحرير في صحيفة « الزمان » اليومية عاما وبعض عام ، أدرك بعدها أنها صائرة للزوال ، فاستقال منها ، وما كاد يفعل

حتى أقفلتها حكومة الاحتلال ، فحزم صاحبها الأرمني متاعه وسافر الى قبرص حيث أنشأ فيها جريدة أسماها « ديك الشرق » •

هذه محاولة جرجي زيدان الوحيدة للاشتغال بالصحافة اليومية ، ويظهر أنها لم تلائم طبعه ، ولم توائم مزاجه النفسي والخلقي وطبيعته • وعاد زيدان بعد رحلته الى السودان ، للاشتغال بالصحافة الأدبية ، بعد أن خلا الميدان في مصر من الصحافة اليومية خلوا تاما • فاشتغل بالاشراف على ادارة المقتطف ، ولم يشترك في تحريره الا بنبذة واحدة تقع في نصف صفحة من خاتمة السنة الحادية عشرة • وهذه الحقيقة قد صححها بلباقة وحياء الدكتور يعقوب صروف في معرض تأبينه لصديقه وزميله جرجي زيدان في عدد سبتمبر سنة ١٩١٤ من المقتطف • ولقد وهم كثيرون (١) من الباحثين فذكروا أن جرجي زيدان شارك في تحرير المقتطف، وقد تابعوا في وهمهم الأب لويس شيخو اليسوعي الذي ذكر في كتابه « الآداب العربية » أن مجلة المقتطف (انتدبت جرجي زيدان ليكتب فيها ، فنشر عدة مقالات مستحسنة •••) وممن تابع الأب شيخو في هذا الوهم : الدكتور جمال الدين الشيال في كتابه « التاريخ والمؤرخون في مصر » ، والدكتور محمد رجب البيومي في مقال له عن جرجي زيدان نشره بالعدد ٥٢٢ من مجلة الثقافة ،

---

(١) كنا أول من صحح هذا الوهم حديثا في بحث لنا عن زيدان « تراث الانسانية » المجلد ٤ عدد ١٠ .

والدكتور محمد يوسف نجم فى كتابه « القصة فى الأدب العربى الحديث » ، والأستاذ عمر رضا كحالة في « معجم المؤلفين » ، والأستاذ طاهر الطناحى فى فصل له عن جرجى زيدان بكتاب « عصاميون عظماء من الشرق والغرب » .

ولم يكمل زيدان فى ادارة المقتطف عامين ، فقد التحق به فى أواخر سنة ١٨٨٦ ، واستقال منه سنة ١٨٨٨ مؤثرا أن يستقل بالعمل وحده . ولعله فى هذه الفترة كان يخطط لانشاء مجلة أدبية أخرى تؤاخى مجلة المقتطف وتزاملها فى ميدان يتسع لمزيد من الجهود . وفى سبتمبر (١) سنة ١٨٩٢ كان القراء فى مصر والعالم العربى والعالم الاسلامى يتلقفون أول عدد من مجلة الهلال التى أنشأها جرجى زيدان بعد أربع سنوات من تركه العمل فى مجلة المقتطف . وصدر العدد الاول يحمل فاتحة بقلم زيدان يقول فيها :

لا بد للمرء فيما يشرع فيه ، من فاتحة يستهل بها ، وخطة يسير عليها ، وغاية يسعى اليها . أما فاتحتنا فحمدا لله على ما أسبغ من نعمه ، وأفاض من كرمه ، والتوسل اليه أن يلهمنا الصواب ، وفصل الخطاب .

وأما خطتنا فالاخلاص فى غايتنا ، والصدق فى لهجتنا ، والاجتهاد فى ايفاء حق خدمتنا . ولا غنى لنا فى ذلك عن معاضدة

---

(١) ذكر الاستاذ أنور الجندى فى كتابه « من اعلام الفكر والادب » ان الهلال أنشىء سنة ١٨٨٩ ، وهو وهم أو لعله من تحريفات الطبع .

أصحاب الأقلام ، من كتبة هذا العصر ، في كل صقع ومصر • أما الغاية التي نرجو الوصول اليها ، فاقبال السواد على ما نكتبه ، ورضاؤهم بما نحتسبه ، واغضاؤهم عما نرتكبه • فاذا أتيح لنا ذلك كنا قد استوفينا أجورنا ، فننشط لما هو أقرب الى الواجب علينا •

وقد دعونا مجلتنا « الهلال » لثلاثة أسباب : « أولا » تبركا بالهلال العثماني الرفيع الشأن ، شعار دولتنا العلية أيدها الله «ثانيا» اشارة لظهور هذه المجلة مرة في كل شهر « ثالثا » تفاؤلا بنموها على الزمن ، حتى تتدرج في مدارج الكمال ، فاذا لاقت قبولا واقبالا ، أصبحت بدرا كاملا باذن الله •

هذا واننا نرجو أن تصادف خدمتنا هذه استحسانا ، وحسن قبول لدى حضرات القراء الكرام• ونعدهم ببذل الجهد في اخلاص الخدمة ، قياما بموجبات مصلحتنا ، وابتغاء لمرضاتهم • والله المسئول أن يلهمنا منهجا قويما ، ومسلكا مفيدا •

ووجد جرجي زيدان في « الهلال » تحقيق حلمه الذي كان يحلم به ، فعكف على تحريرها بنشاط لفت اليه أنظار الكثيرين ، حتى ليقول المستشرق الكبير أغناطيوس كراتشكوفسكي في صدد ذلك : (وقد ارتبطت حياته ارتباطا وثيقا بهذه المجلة منذ ذاك الى حين وفاته المبكرة ، وكان زيدان جم النشاط عارمه) •

ووجد الناس في الشرق مجلة أدبية علمية خفيفة الظل بجانب

مجلة « المقتطف » التى كانت تمتاز موضوعاتها بالدسامة والعلوم الطبيعية والفلك والتاريخ الطبيعى ، فتهافتوا عليها ، واشتركوا فيها ، وغمروها بالأسئلة التى كان يجيب عنها زيدان ، كما كان يجيب الدكتور صروف عن أسئلة القراء فى المقتطف .

ولم ينحصر ميدان انتشار الهلال فى العالم العربى وحده ، ولكنه تخطاه الى البلاد التى يقيم فيها قراء من العرب أو يعرفون العربية. وما كادت تبلغ خمس سنوات من عمرها حتى لاحظ الياس زخورة ، صاحب « مرآة العصر » ، سعة انتشارها فكتب يصف شهرتها وسعة انتشارها بما لم يسبق له مثيل فى العالم العربى (فقراؤها يعدون بعشرات الآلاف ، وهم منتشرون فى أقاصى العالم حتى الصين والهند واستراليا وأمريكا وزيلاندا وزنجبار وجزائر المحيط ، فضلا عن سعة انتشارها فى مصر وسوريا وأوربا وغيرها) .

ولو ألقيت نظرة على الغلاف الداخلى لعدد من أعداد الهلال فى ذلك الزمان لرأيته يزدحم بعناوين وكلاء المجلة فى الولايات المتحدة ، وكندا ، والمكسيك ، وكوبا ، وسلفادور ، وهندوراس ، والبرازيل ، والأرجنتين ، وشيلى ، والبصرة ، وبغداد ، وكربلاء ، وجاوة ، وجزائر الهند الشرقية ، وبيروت ، ودمشق ، وحلب ، وطرابلس .

وبات هذا الانتشار الواسع لمجلة الهلال حدثا يلفت الأنظار فى الشرق العربى تنبه له الشرقيون والغربيون على السواء ، فنرى

المستشرق كراتشكوفسكي في المقال القيم الذي كتبه عن جرجي زيدان في دائرة المعارف الاسـلامية يؤكد هذه الحقيقة بقوله : (وأصبح الهلال أوسع المجلات العربية انتشارا) .

وكثير من الكتب التي ألفها جرجي زيدان كان ينشر في الهلال على هيئة فصول متفرقة . فكتابه « تاريخ اداب اللغة العربية » نشر منه فصولا صدر أولها سنة ١٨٩٤ في عدد الهلال التاسع من السنة الثانية ، وصدر آخرها في أواخر السنة الثالثة ، وانتهى بالفصول المنشورة الى عصور الانحطاط في الأدب العربي ، ثم اتجه الى أن يجعل منه كتابا قائما ، فظل يجمع ويقرأ ويحقق ويحلل ، ولم تقع له شاردة الا قيدها ، ولا ملاحظة الا حفظها وتدبرها حتى ظهر الكتاب كاملا في سنة ١٩١١ ، أي بعد بضع عشرة سنة من تاريخ نشر أول الفصول على هيئة مقالات في « الهلال » .

وكتابه « تراجم مشاهير الشرق » نشر كثير من تراجمه في أعداد مجلة الهلال منذ السنوات الأولى لصدورها ، ثم رأى أن يجمعها في كتاب قائم بذاته بعد أن كثر طلب القراء لمثل هذا النوع من الكتب ، فاستجاب لرغبتهم وأصدر الطبعة الأولى من الكتاب سنة ١٩٠٢ لا سنة ١٩٠٧ كما ذكر خطأ في كتاب « مصادر الدراسة الأدبية » ليوسف أسعد داغر .

وكتابه « تاريخ التمدن الاسلامي » صدر منه فصول في مجلة الهلال على هيئة حلقات ، ظهر منها بضع عشرة حلقة كان القراء

يتقبلونها بقبول حسن ، فرأى أن يجعل تتمة السنة العاشرة من مجلة الهلال ـ أى سنة ١٩٠٢ ـ كتابا كاملا مستقلا فى هذا الموضوع • وبهذا ظهرت الطبعة الأولى من « تاريخ التمدن الاسلامى » سنة ١٩٠٢ لا سنة ١٩١٠ كما ذكر الدكتور حسين مؤنس فى تقديمه للكتاب فى طبعته الأخيرة التى صدرت سنة ١٩٥٨•

وهكذا ترى أن أغلب مؤلفات جرجى زيدان كان فى الأصل فصولا ومقالات نشرت فى مجلة الهلال ، ثم طبعت فى كتب مستقلة بعد ذلك •

واصدار كتاب بدلا من عدد أو عددين من مجلة « الهلال » هى خطة جرت عليها أيضا مجلة « المقتطف » فيما كانت تنشره من كتب تعدها لواحق للمقتطف • على أن الهلال بعد ذلك جرت على اصدار أعداد خاصة أو ممتازة من المجلة تعالج موضوعا واحدا معينا فكأنها فى الحق كتاب قائم بذاته • فمنذ سنة ١٩٣٢ حتى سنة ١٩٤٨ أصدرت بضعة عشر جزءا من الأعداد الخاصة تناولت موضوعات مستقلة ، كالأعداد عن الفاروق عمر بن الخطاب ، وأبى الطيب المتنبى ، وأبى نواس ، وأبى العلاء المعرى ، والمرأة والحب ، والعرب والاسلام • وأخيرا صدر لها عددان خاصان أحدهما عن عباس محمود العقاد فى أبريل سنة ١٩٦٧ ، والثانى عن الشاعر أحمد شوقى فى نوفمبر سنة ١٩٦٨ •

والحق أن مجلة « الهلال » عاصرت التطور الحديث فى العالم العربى ، وسايرته وأسهمت بنصيبها فيه منذ انشائها سنة ١٨٩٢ حتى اليوم • ولا شك أن آراء علمائنا ومفكرينا وأدبائنا فى «الهلال» تعطى فكرة واضحة عن الدور الذى قامت به هذه المجلة لتطور الفكر العربى • فهذا أحمد زكى «باشا» يقول فيه : (هلال السماء ينتقل من نقص الى زيادة ، ومن زيادة الى نقص وأما هلال زيدان فدائما فى ازدياد) • وهذا أمين سامى « باشا » يقول : (من ذا الذى لا يعترف بفضل الجهود التى يبذلها القائمون بأمر مجلة الهلال الممتازة بمباحثها العلمية العالية والأدبية الراقية التى هى خير ما يقتدى به) • وهذا الشيخ مصطفى عبد الرازق يقول : (كان الهلال مجلة الشيوخ • فصار مجلة الشيوخ والشبان) ، وهذا عباس محمود العقاد يقول : (الهلال ييسر المعارف ولا يبتذلها) ، وهذا ابراهيم المازنى يقول (الهلال مجلة من يدرسها يدرس عناصر النجاح فى الحياة) ، وهذه الأديبة الآنسة مى زيادة تقول : (الهلال صورة واضحة للتطور الحديث) ، وهذا محمد فريد وجدى يقول : (مجلة الهلال من أجمع المجلات لثمرات العقول الناضجة ، فهى من أنفع العوامل لامداد النهضة الفكرية الراهنة بما تحتاج اليه) ولن تتم هذه الشهادات الصادقة بغير شهادة الدكتور طه حسين الذى قال : (كانت الهلال مثال الجد فى العمل ، والاخلاص للعلم، ثم أصبحت ـ الى ذلك ـ مثال الفطنة لأذواق القراء ، والنشاط

لارضائهم . وهى على كل حال أخف المجلات العربية ظلا ..) .

الحق أن جرجى زيدان عرف منذ اللحظة الأولى لانشائه مجلة الهلال كيف يجعلها محبوبة لدى الناس جذابة لديهم ، فخفف من جفاف المادة العلمية الدسمة الثقيلة على معدات القراء بما أضفى عليها من خفة الظل التى أشرنا اليها قبلا ، والتى سجلناها للدكتور طه حسين فى ختام هذه الشهادات .

التثقيف الذاتي والتعويل على المصادر

ان مدرسة المعلم الياس شفيق ، ومدرسة الشوام ، ومدرسة المعلم ظاهر خير الله ببيروت لم تعط الصبي والغلام جرجي زيدان شيئا أكثر من « فك الخط » ، والقـراءة ، والحسـاب ، وشيء من النحو والصرف ، ومبادىء اللغة الفرنسية. أما مدرسة المعلم مسعود الطويل المسائية فقـد أعطت زيدان شـيئا لا بأس به من اللغـة الانجليزية . وقد تكون السنة الدراسية التي قضاها في المدرسـة الكلية الأمريكية ببيروت فتحت أمامه أبواب تعلم الطبيعيات والحيوان والنبات والجيولوجيا والكيمياء ، والمواد الطبية والأقرباذين ، وهي المواد التي أدى فيها امتحانا لنيل شهادة الصيدلة .

ومن هنـا كان زيدان لم يتعلم تعليمـا منتظما في المـدارس النظامية ، وقد عاكسته الأقدار فلم تهيىء له من ذلك التعليم ما كان

يصبو اليه • وحتى على فرض أنه استوفى حقه من التعليم الدراسى المنظم ، فهل كانت المدارس يوما ضمانا للنجاح فى الحياة ، أو كانت الشهادة يوما صكا على الأيام بالانجازات العظيمة للمرء فى حياته ؟

لقد تعلم زيدان فى مدرسة الحياة على نفسه ، فكان هو فى نفسه طالبا ومعلما • وقد أدرك بفطرته العارفة أن المطالعة والقراءة هما سبيل من لم تمكنه الحياة من الدروس النظامية فى المدارس • فكان أول كتاب قرأه بالانجليزية هو « رحلة كوك فى المحيط » ، وكان أول كتاب قرأه فى العربية بعد ذلك هو كتاب « مجمع البحرين » للشيخ ناصيف اليازجى ، وهو الكتاب الذى وصل به اليازجى سلسلة كتب المقامات فى الأدب العربى حتى عصرنا الحاضر• وقد استكثر والده عليه أن يشترى هذا الكتاب ببضعة قروش لا تتجاوز تسعا ، وعد ذلك منه سرفا وسفها ••• وعلى قدر ما اغتم والد زيدان لسفه ابنه فى شراء كتاب أو ورق بدراهم معدودة ، فرح أمين فياض ـ صديق الأسرة ـ بهذا الاتجاه من الولد المحب للقراءة وخاطب والده قائلا : اشكر الله يا أبا جرجى أن ابنك ينفق الدراهم فى شراء الكتب ، وليس فى السكر ونحوه • انها نعمة يجب أن تشكر الله عليها ؟ ويقرر لنا جرجى زيدان فى مذكراته الصريحة الطريفة أن ولوعه بالمعرفة والعلم قد دفعه الى مطالعة كتب الطبيعة والجغرافيا ، واستطاع أن يحصل على بعض المؤلفات فى هذين الموضوعين من العملاء المترددين على مطعم أبيه • ولقد بهره

أن يعرف من عجائب الكون عن طريق القراءة حركة دوران الأرض ، والخسوف والكسوف ، والزلازل والبراكين ، وتكون السحاب ونزول المطر . ولقد استهوته مقالة فى احدى المجلات العربية - ولعلها المقتطف - عن ظاهرتى الكسوف والخسوف فزادت تلهفه على قراءة كتب الجغرافية الطبيعية .

ويفسر لنا الدكتور حسين مؤنس سر تعلق زيدان بالموضوعات التاريخية ، فقد كانت كتب التاريخ أحسن ما تخرجه المطابع فى ذلك العهد ، وكان الرجل شديد النهم الى القراءة والاطلاع ، فنهل من هذه المناهل ، وروى عن سعة ، وسار فى ركب المؤرخين ، فلم يلبث أن فارقه تهيبه ، وأصبح بفضل دأبه على العمل ، وصبره على المطالعة والبحث ، عمدة مؤرخى العرب على أيامه (١) .

على أننا لا ننكر عاملا آخر ساعد على سعة اطلاع جرجى زيدان وامتداد آفاق مطالعاته وقراءاته . فقد كان يجيد العربية وينفذ الى أعماقها ، ويقرأ النصوص القديمة - على وعورتها - بطلاقة وفهم عميق ، وكان يعرف الأنجليزية والفرنسية والألمانية واللاتينية معرفة تامة ، وكانت معرفته بالايطالية والأسبانية تمكنه من فهم ما يقرؤه فيهما ، بالاضافة الى اتقانه العبرية والسريانية من اللغات السامية . وقد أتاحت له هذه الألسن المتعددة أن يقرأ فى انتاجها الفكرى ، وأن تنبسط مطالعاته الى آفاقها .

---

(١) من تقديم كتاب « تاريخ التمدن الاسلامى » فى طبعته الاخيرة ص ٨

ان زيدان نموذج جيد فى تاريخ الأدب العربى للذين ثقفوا أنفسهم بأنفسهم ، وقد كان فيه طبيعة لالتقاط المعرفة وكسبها من أى مصدر مقروء سواء أكان مجلة أم كتابا ، وقد أفاده طول تقليبا كتب الأوائل بين يديه علما بالمصادر ومظان البحث ومواطن الافادة بالمعرفة . وهو فى هذا يذكرنا فى القدماء بياقوت الرومى صاحب معجم الأدباء ، ومعجم البلدان ، وهما من أضخم مراجعنا العربية فى التراجم والبلدانيات . فقد كان أسيرا من أسرى الروم ، لم يدخل مدرسة ، ولا قرأ على شيخ من الشيوخ ، ولكنه تعلم اللغة والنحو على كبر فى السن ، ثم اشتغل بنسخ الكتب لمن يطلبون نسخها ، فأفاده ذلك وعاد عليه بثروة ضخمة من المعرفة . ومن هنا كان تثقيف زيدان لنفسه بنفسه ظاهرة تلفت النظر عند الباحثين والدارسين . ويسرنا أن صاحب « من أعلام الفكر والأدب » قد تنبه لهذه الظاهرة ، مع ظاهرة الهجرة الى مصر التى منحته معنى القوة والثقة بالنفس (١) .

ولقد أنس زيدان بالكتب فجعلها دعامته فى مصادره لكتبه التى ألفها . وهو دائما يسجل أسماء مصادره ومراجعه وخاصة فى مقدمات تآليفه ، وأحيانا يذكر المصادر فى هوامش الكتاب مشيرا الى أجزائها وأرقام صفحاتها ، وأحيانا يذكر المراجع ـ وقد يسميها أحيانا المآخذ ـ فى آخر باب من أبواب الكتاب ، كما فعل فى مصادر

(١) من أعلام الفكر والادب ص ٨٥ .

الشعر الجاهلى ، فقد ذكرها فى نهاية باب العصر الجاهلى ، وذكر منها واحدا وثلاثين مرجعا عربيا مع ذكر سنوات الطبع وأمكنة طبعها . ثم أعقب ذلك بذكر بضعة من المراجع الأوربية لموير ، وسلان ، وليال وغيرهم ، وختم المراجع للشعر الجاهلى بذكر كتاب فى شرح المعلقات بالعربية ، والفارسية ، والهندية ، اسمه « رياض الفيض » طبع فى لاهور بالهند سنة ١٢٩٩ هـ .

ومن المؤلفين المعاصرين من يتكثرون بذكر المراجع والمصادر حبا فى التفاخر والتباهى ، وقد يكونون لم يطلعوا على كثير مما ذكروه من مراجعهم ، فهم ينقلون مراجع غيرهم ويضعونها فى كتبهم ، وكثيرا ما تكشف قراءاتنا الفاحصة عن هذا التفاخر والتكثر الرخيص . ولكن زيدان كان أجل قدرا ، وأصدق حالا من أن يدون فى مؤلفاته مرجعا لم يقرأه ويرجع اليه ويفد منه . ولقد كثرت مراجعه كثرة تلفت النظر . ويعترف هو فى مقدمة كتابه « تاريخ التمدن الاسلامى » أنه قد زاد عدد ما طالعه من الكتب العربية والأفرنجية لهذا المؤلف على مائتى مجلد (١) ، ونحن لا نشك لحظة فى هذا العدد الذى يقدمه ، فنحن ندرى ما يحتاج اليه البحث فى هذه الموضوعات من قراءات واسعة .

وتختلف مصادر زيدان ومراجعه بين عامة وخاصة ، وبين عربية وأجنبية . والمصادر العامة كان يفيد منها جرجى زيدان فى

---

(١) تاريخ التمدن الاسلامى ـ ص ١٤ ـ الطبعة الاخيرة .

جمع جزئيات المسائل وفروعها ، وخاصة ما يتصل بالحضارة الاسلامية ، والمراجع الخاصة هى التى تنحصر فى موضوع معين ، كمراجعه للشعر الجاهلى وشعراء الجاهلية التى سبق الحديث عنها .

وحين يلجأ زيدان الى ذكر مصادره ومراجعه فله فى ذلك طريقتان : الأولى أن يأتى بها فى تقديمه الكتاب ، ويذكرها أو يذكر بعضها على سبيل المثال متتالية حسب موضوعاتها ، كما فى مقدمته لتاريخ التمدن الاسلامى ، فيقول : (ومن أمثلة ما قرأناه من كتب التاريخ والفتوح والتقاويم كذا وكذا ، ومن كتب الأدب كذا وكذا ، ومن كتب التفسير والحديث والفقه كذا وكذا ، ومن كتب السياسة والادارة كذا وكذا) . وهكذا يذكر الكتب وفق موضوعاتها متعاقبة بلا ترتيب لها وفق حروف الهجاء ، فالكتاب المبدوء بحرف الميم يأتى قبل الكتاب المبدوء بالهمزة . والطريقة الثانية أن يدون أسماء الكتب فى جدول أو ثبت مرقمة ، مع ذكر تاريخ الطبع ومكانه . على أنه – بالاضافة الى الطريقتين السابقتين – قد يذكر المراجع فى هوامش الكتاب كما أسلفنا .

ولكن هناك فوق ما تقدم طريقة فريدة لزيدان فى مصادره عن الأعلام ، والشعراء ، والخطباء ، والفقهاء ، والمفسرين ، والمحدثين ، والمؤلفين واللغويين ، ورجال الأدب والفكر ، الذين يزدحم بهم كتابه الضخم « تاريخ آداب اللغة العربية » ، فهو فى نهاية الترجمة أو التعريف بكل شخصية يذكر مصادر ترجمتها .

ففي نهاية ترجمته للشاعر مسلم بن الوليد ـ مثلا ـ يقول : (وتجد أخباره في الشعر والشعراء ٥٢٨ ، وفى الأغانى ٩ ج ١٣ ، والعقد الفريد ١٤٢ هـ ج ١ ، وفى طبعة الديوان المذكورة) • ولما كانت هذه المصادر والمآخذ قد فات زيدان بعضها ، أو ظهر بعد عصر زيدان مصادر ودراسات جديدة بعد أن انتقل الرجل الى رحمة الله ، فان استكمال هذه المصادر ـ بما ظهر من مخطوطات نشرت ، أو دراسات استجدت ، أو نقص استكمل ـ قد بات ضروريا للطبعة الجديدة من هذا الكتاب ، وهو عمل قد قام به الدكتور شوقي ضيف على وجه محمود ومشكور ، على حين أن الدكتور أنطون كرم يرى أن شوقى ضيف لم يضف كبير شيء الى هذه الموسوعة الأدبية الوصفية (١) • وهو حكم نرى فيه كثيرا من الجور •

ولم يقف زيدان الافادة من مصادره للبحث على المصادر القديمة وحدها ، ولكنه كان يتابع المكتبة العربية والكتب المطبوعة حتى أيامه • ففى ترجمته للشاعر الجاهلى : المتلمس ، يضيف الى المصادر القديمة مصدرا معاصرا له وهو كتاب « شعراء النصرانية » للأب لويس شيخو اليسوعى المتوفى سنة ١٩٢٧ •

ولم يتأثر جرجى زيدان فى تسجيله لمصادر دراسته بما كان بينه وبين بعض حساده من خصومات ؛ لأنه يضع العلم والحق فوق

---

(١) الادب العربى فى آثار الدارسين ص ١٢٦ •

كل اعتبار . فلا نراه يغضب مثلا على الأب لويس شيخو ويسقطه من ذكره وذكر كتبه بين مصادره لأن الرجل تهجم عليه في نقده ، ولكنه ينسى اساءات المسيئين ، وان كنا لم ننسها نحن ولم ينسها تاريخ النقد حين كتب الأب شيخو عن كتابى زيدان : « علم الفراسة الحديث » و « تاريخ الماسونية العام » يقول : (.. وأقبح منه تاريخ الماسونية العام الذى ذهب فيه زيدان مذاهب صبيانية خرافية(١) ..

---

(١) الآداب العربية في الربع الاول من القرن العشرين ـ ص ٧١ .

كتب زيدان بين النقد والرواج

لقد تعرضت كتب جرجى زيدان لحملات من النقد لم نشهد لها ضريبا فيما صدر من كتب لمؤلفين فى أخريات القرن الماضى والربع الأول من القرن العشرين . وقد أحس الرجل نفسه كثرة استهدافه واستهداف كتبه للنقد ، فكتب فى مقدمة الجزء الثالث من « تاريخ آداب اللغة العربية » يقول : (لا نظن كاتبا من كتاب العصر لاقى ما قيناه من الانتقاد فى أثناء اشتغالنا بهذه الصناعة منذ بضع وعشرين سنة) . وكان فى أول الأمر يعنى بالانتقادات ويرد عليها ويبين موضع التحامل فيها ، كما فعل فى رده على كتاب « نبش الهذيان من تاريخ جرجى زيدان » لأمين بن حسن المدنى ، وكما رد فى « المؤيد » على انتقاد الجزء الأول من تاريخ التمدن الاسلامى. ومضى زيدان فى تآليفه ولم يبال بالناقدين بعد ذلك ، ولم يكلف

نفسه عناء الرد عليهم ، بل جعل المثابرة على العمل فى خدمة تاريخ الاسلام والأدب هى جوابه على الانتقادات .

وكان زيدان ــ شأن العالم الحقيقى ــ يرى أن انتقاد الكتب أكثر من تقريظها فائدة ونفعا . وأن الانتقاد لا يحط من قدرها أو يذهب بفضل أصحابها (١) . وكثيرا ما نراه يشيد بفضل ناقديه عليه وجميلهم اليه ، كموقفه من نقد الأب لويس شيخو اليسوعى لتاريخ آداب اللغة العربية الذى نشره فى مجلته « المشرق » فى الجزء الثامن من السنة الرابعة عشرة ، فقد وصف نقد الأب شيخو بأنه (نم عن أدبه وفضله ، ودل على تمكنه من الموضوع) . وكثيرا ما كان يرجو ممن يقع فى أحد كتبه على خطأ أن ينبهه اليه ليستدركه فى الأجزاء التالية ، فان العصمة لله وحده (٢) . ويدلنا هذا على جانب من جوانب الخلق الكريم عند زيدان ، فطالما ألح على قرائه الكثيرين أن ينبهوه الى أخطائه ، ليستوجبوا بذلك شكره وثناءه (لأنى أستحى من الحق اذا عرفته أن لا أرجع اليه) (٣) .

وكان زيدان حين يرى النقد سليما ويصح عنده فأنه يأخذ به ، ويغير ويصحح فى الكتاب فى الطبعة الجديدة ، أو يشير الى التصحيح فيما يلى من أجزاء الكتاب . وأما ما لا يصح عنده من النقد فأنه يغفله ولا يشير اليه (٤) .

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية : جـ ٣ ص ٤ .

(٢) المصدر نفسه جـ ١ ص ٨ .

(٣) تاريخ مصر الحديث ص ٧ .

(٤) تاريخ التمدن الاسلامى . جـ ١ ص ١٧ .

وما اتسع صدر كاتب عندنا فيما نعلم كما اتسع صدر جرجى زيدان ، وكان الحاحه الدائم على قرائه بأن يبعثوا اليه بملاحظاتهم واستدراكاتهم هو الدليل على ثقته بنفسه من ناحية ، وثقته بالقراء من ناحية أخرى • فهو لا يعد نفسه الحكم الفيصل فى الموضوع الذى يعالجه ، ولكنه يعد القارىء شريكه ، وطرفا آخر فى القضية• وكثيرا ما يحس بفطرة العالم أن شيئا أو أشياء قد تكون فاتته فى الكتاب فيتمنى على القارىء لو بعث اليه بما يوفى الموضوع ، ويسد النقص • فانه حين فرغ من تأليف « تراجم مشاهير الشرق » أحس أن هناك تراجم قد تكون فاتته لقلة المآخذ المؤدية الى ذلك ، لقرب عهدنا من الحضارة الجديدة (فلا يخلو أن يكون قد فاتنا ذكر بعض المشاهير من رجالنا ، فنرجو من أهل الاطلاع أن ينبهونا الى ذلك، ويبعثوا الينا بما يعلمونه من تراجم أولئك الرجال ، لندرجها فى ملحق نجعله جزءا ثالثا لهذا الكتاب ان شاء الله) (١) •

وكان جرجى زيدان يجمع هذه الانتقادات والملاحظات التى تنشر فى المجلات والصحف ، أو تطبع فى كتب على حدة ، أو ترسل اليه على هيئة رسائل خاصة ، ويعيها وعى العالم الدقيق ، فاذا ما استقر عنده صحتها وسلامة وجهة النظر فيها نشرها فى آخر أجزاء الكتاب ان كان ذا أجزاء ، أو فى الطبعة الجديدة منه • وقد

---

(١) من مقدمة جرجى زيدان للطبعة الاولى من (تراجم مشاهير الشرق) ص ٧ •

نشر فى ذيل الجزء الرابع من « تاريخ آداب اللغة العربية » كثيرا من الاستدراكات والاصلاحات على ضوء الانتقادات التى نشرت حول الأجزاء الثلاثة السابقة من هذا الكتاب • وسجل فى المستدرك أسماء طائفة من أصحاب تلك الانتقادات ، وهم الأب لويس شيخو فى مجلة المشرق ، والأب أنستاس مارى الكرملى فى مجلة لغة العرب ، والشيخ أحمد الأسكندرى فى مجلة المنار ، وآل كاشف الغطاء فى مجلة العرفان ، وعيسى اسكندر المعلوف فى الآثار ، وأحمد تيمور فى رسائله الخاصة ، والمستشرق جولدتسيهر ، والأستاذ عبد الفتاح عبادة ، ورضاء الدين بن فخر الدين فى الروسيا فى كتبهم وخطاباتهم الى زيدان •

وحين أصدر زيدان الجزء الثانى من « تاريخ آداب اللغة العربية » لم يشأ أن يسكت على مسألة الناقدين للجزء الأول منه ، فبعد أن شكر المقرظين بدأ يبين اهتمام المنتقدين بانتقاد الكتاب (بلهجة تتفاوت شدة وأسلوبا بتفاوت فهمهم من المراد بالانتقاد وشروطه) ، كما بين بعد ذلك حرج مركز الكاتب الشرقى بين قرائه (فليس فى الدنيا جمهور استحكم فيه اختلاف المشارب والأهواء والأغراض مثل قراء العربية ، فهم مختلفون موطنا ومشربا ومذهبا وتربية ، فلا يتأتى لكاتب ارضاؤهم جميعا ولو أوتى علم الأولين والآخرين) • ورد على من يقول فى نقده انه قلل من الأمثلة والنماذج الشعرية والنثرية ، بأن ذلك كان عن قصد وارادة،

فلو أكثر من الأمثلة لخرج عن الغرض المقصود من الكتاب ، وأحال من يطلب اكثار النماذج على المراجع القديمة الأصلية ذاتها ، أو على كتب فى الأدب العربى معاصرة له ، منها كتاب محمد عاطف بك وزميليه ، وكتاب الشيخ محمد حسن نائل المرصفى .

وحين أصدر ثالث أجزاء الكتاب كتب مقدمة غير قصيرة فى النقد والناقدين ، ورد على الأب شيخو ، وأحمد عارف الزين ، والأب الكرملى ، والشيخ أحمد الأسكندرى . وقد أطال فى رده على الأسكندرى ، ويظهر أنه كان شديد التأثر من لهجته فى الانتقاد ، فقد لاحظ على شيخنا أحمد الأسكندرى أن لهجته فى النقد هى لهجة أستاذ يلقى درسا على تلميذه ، وتمنى عليه لو اختار فى الانتقاد لهجة أخرى وخاصة أنه عانى التأليف فى موضوع الأدب العربى بكتابه « الوسيط » .

وقد تعزى زيدان فيما وجه اليه من انتقادات لكتبه بما لاحظه وقرره من أن المرء لا يكاد يجد كتابا واحدا لم يتناوله الأدباء بالنقد . فكتاب « العين » للخليل ، و « الكتاب » فى النحو لسيبويه ، وشعر المتنبى ، وأبى تمام وغيرهما لم تسلم من ناقد أو عائب . بل لم يسلم من النقد العنيف والتقريع واحد من كبار اللغويين والمؤرخين من أمثال ابن الأثير ، وابن خلكان ، والفيروزابادى ، وابن خلدون ، والمقريزى وغيرهم .

وكانت الانتقادات الموجهة الى زيدان وكتبه ــ وخاصة في الآداب العربية ، والتمدن الاسلامي ــ تختلف شدة وضعفا ، ولينا وعنفا ، وبراءة وغرضا . ويشير أحمد أمين الى اختلاف نقاد جرجى زيدان بقوله : (وكان نقاده مختلفى الأصناف ، فمنهم هادىء رزين فى نقده ، كنقد المرحوم رفيق بك العظم ، والأب لويس شيخو ، ونقد لاذع شديد كنقد المرحوم الشيخ أحمد الأسكندري فى مجلة المنار ، ونقد نزيه ونقد غير نزيه) وهذا الكلام يحتاج الى تبيين أكثر ، والى تكميل بما يوفى الكلام فيمسألة انتقادات كتب زيدان . فان بعض النقود كانت موضوعية كانتقادات الشيخ الأسكندري ، والأب الكرملي ، والدكتور يعقوب صروف الذى كان ينقده في « المقتطف » نقدا هادئا لبقا ، ليس فيه كلمة جارحة . وبعض النقود كان فيه موضوعية ، ولكنه يخرج عن اطار الهدوء الى اطار الاثارة والاتهامات المجسمة كالاتهامات بسوء النية فى اظهار مثالب العرب ، والاتهام باعتماد زيدان على روايات وأخبار ثبت كذبها ، والاتهام بخديعة زيدان لقرائه بمدح الاسلام وكونه أقرب لحرية الفكر ثم الدس عليه بعد ذلك بابراز آراء أهل الفرق الضالة والمذاهب المعروفة بالالحاد والزندقة ونسبتها الى الاسلام ، وهذه الاتهامات هى مما جرى به قلم الشيخ شبلى النعمانى الهندى، وأسس عليها بالطبع اتهام جرجى زيدان بالشعوبية .

وعلى الرغم من شهادة زيدان نفسه لانتقادات الأب لويس

شيخو بأنها كانت تنم عن أدب وفضل وانصاف فى الحكم وتمكن فى الموضوع ، فان قلم هذا الأب كان ينزلق أحيانا الى عبارات وألفاظ لا تليق برجل دين ، كألفاظ الأوهام ، والخياليات ، والقبح، والصبيانيه ، والخرافية وما اليها . وهى ألفاظ سجلها الأب لويس فى كتابه عن (الآداب العربية). أما انتقادات الشيخ ابراهيم اليازجى وخاصة لأسلوب زيدان وألفاظه غير الفصاح ، فقد كانت ـ على أدبها وهدوئها ـ نموذجا لتشدد اليازجى فى نقد اللغة الدائرة يومئذ ، والتى أسماها « لغة الجرائد » ، كما كانت ـ كما يقول كراتشكوفسكى ـ انتقادات من يتصيد الأخطاء (١) .

ومن أشد الانتقادات التى وجهت الى كتب زيدان تلك التى وجهها اليه الشيخ أمين بن حسن المدنى فى كتابه « نبش الهذيان من تاريخ جرجى زيدان » ، وقد رد عليه زيدان بكتاب عنوانه « رد رنان ، على نبش الهذيان » صدر عن مطبعة التأليف سنة ١٨٩١ . ولم يتح لنا الاطلاع على نقد الشيخ أمين المدنى هذا ولا كتابه ، ولكن كراتشكوفسكى يذكر لنا أن هذا النقد كان تافها فى معظمه .

على أن هناك ناقدا لزيدان كان من السابقين الى نقد كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » نقدا موضوعيا نزيها هو الدكتور محمد

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية .. مادة زيدان ص ٨ .

حسين هيكل « باشا » ، وكان زيدان قد أهدى اليه نسخة من كتابه، على غير سابقة معرفة بينهما كما يقول هيكل ، فأكبر الرجل هذه اللفتة وتفرغ لقراءة الكتاب بامعان ، وخرج من القراءة بنقد نزيه مؤدب نشره فى « الجريدة » سنة ١٩١٢ .

وقد سبق أن أشرنا هنا الى نقد الدكتور يعقوب صروف واتسامه بالأدب والهدوء واللباقة وعدم التجريح . ونجد هنا المجال مواتيا للاستشهاد ، ففى عدد سبتمبر من المقتطف سنة ١٩١٣ دخل صروف ميدان النقد لتاريخ آداب اللغة العربية بكلمة وجيزة ذات دلالة يقول فيها : (ولا شبهة فى أن كثيرا من منقولاته وأحكامه يفتقر الى التحقيق والتمحيص ، ولكن ذلك يكون بعد الجمع والتبويب). وقد ترفق صروف بهذه العبارة الناعمة بصديقه زيدان فى خلال معركة عنيفة سلت فيها السيوف عليه من كل جانب ...

ولا تزال معركة النقد لكتب زيدان قائمة لم يفصل الموت فيها . وستظل المعركة قائمة ما دام الكتاب يبقى حيا بعد صاحبه . ومن أحدث الانتقادات الموضوعية لكتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » ما كتبه الدكتور أنطون كرم فى الفصل الخاص بالشعر العباسى حتى آخر عصر المتنبى من كتاب « الأدب العربى فى آثار الدارسين » ، فمع تقدير الناقد للظروف والزمان الذى ألف فيه كتاب زيدان فانه يرى أن به آفتين كبيرتين : الأولى ترجع الى « ذهنية » المؤرخ لدى زيدان فقد غلبت على ذهنية الدارس الناقد،

فطغى التاريخ على الأدب ، والثانية مردها الى أن التمهيد العام الذى وضعه زيدان ص ١١ ـ ٤٢ لا يرتبط بالشعر الا من بعيد ، وأن المقدمات الخاصة التى جعلها لكل مائة من المئات العباسية الثلاث قد لا تخلو من الخطأ ، لفرط ما فيها من التعميم ، أو قد يتخذ فيها الدليل والدليلين فيسوقهما قاعدة (١) مطلقة .

وعلى الرغم مما وجه الى كتب زيدان من انتقادات كثيرة فى معركة طويلة موصولة ، فانها كانت تروج رواجا عظيما عند القراء ، وطبعت مرارا ، وترجمت الى لغات كثيرة أوربية وشرقية . ويعترف هو نفسه بهذا الرواج والتقدير والقبول ، ويقول : (ولا نقول ذلك للتفاخر فاننا من أبعد الناس عن التنويه بأعمالنا ، وانما نقوله ـ رغم ارادتنا ـ تقريرا للحقيقة) (٢) .

وقد حظيت روايات زيدان التاريخية برواج آخر عظيم لم تصادفه مؤلفات فى عصره ولا فى الجيل الذى بعده . ويشير صاحب « مرآة العصر » الى هذا الرواج الذى لم يسبق له مثيل فى اللغة العربية (٣) . ولا نعيد هنا مسألة ترجمة مؤلفات زيدان الى غير العربية ، ولكنا نؤكد أن بعضها ترجم حتى الى الروسية والبرتغالية والألمانية ، وأن معظمها ترجم الى لغات شرقية منها لغة « التاميل »

---

(١) الادب العربى فى آثار الدارسين ـ ص ١٢٦ .

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية . جـ ٣ ص ٦ .

(٣) مرآة العصر . ص ٤٦٤ .

فى سنغافورة • والأذربيجانية ، والهندستانية ، والفارسية • وليس هناك غرابة فى أن تترجم كتب زيدان الى اللغات الأوربية التى اعتمد هو عليها فى تأليفه ، فانه قد أفاد من المصادر العربية التى بين يديه فائدة عظيمة ، وجمع منها مادة وتفصيلات حضارية ـ وخاصة فى تاريخ التمدن الاسلامى ـ الى حد أن الدارس الأوربى كثيرا مايجد فى هذا الكتاب بالذات تفصيلات لا يجدها فى مكان آخر (١) •

وليس معنى هذا أن كتب زيدان كلها كان حظها الرواج المطلق ، فان بعضا منها لم يلاق النجاح مثل تاريخ الماسونية ، والتاريخ العام ، وتاريخ انكلترة ، وجغرافية مصر •

وما رأينا منقودا انتفع بنقد ناقديه مثل جرجى زيدان • لقد كان يرحب بالنقد ، ويطلبه من القراء ، ويعمل به ـ أو بما يصح عنده منه ـ فى الطبعات التالية لمؤلفاته ، حتى يجىء انتاجه أوفر مادة ، وأبعد من المآخذ ، وأقرب الى الكمال •••

والحق أن كتب زيدان قد راجت ونجحت وأقبل الناس عليها بما فيها هى نفسها من صحة وصلاحية ومسوغات للرواج ، لا بالعوامل الأخرى التى قد تؤتى بعض الثمرات العاجلة ولكنها لا تبقى على المدى الطويل ، كغنى المؤلف أو مركزه الاجتماعى أو نفوذه فى الدولة ، أو تنظيم الدعاية له وحشد المهللين حوله • وهى

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية •

عـوامل لا تبقى طويلا ، واذا أفادت بعض الحين ، فأنها لا تضفى الصحة على العمل أو الانتاج فى ذاته • وكثيرا ما كان زيدان يدق على هذا الوتر حين يتناول موضوعا اجتمـاعيا فى الهلال • وأكثر الظن أنه كان يرد بهذا على هجوم ناقديه من حين الى حين • ففى مقال بالهلال وعنوانه « لا يصح غير الصحيح » عالج الموضوع كأنه موضوع اجتماعى يتصل بنواميس الطبيعـة فى الحكم على الأصلح بالبقاء ، ولكن مرامى المقال كانت تتجه فى وضوح الى آفة النقـد فى الشرق ، لأن أهله ـ كمـا يقـول ـ تعودوا التملق والتزلف والمجاملة ، وأما الانصاف الحقيقى فى تقدير الأعمال فانه موكول الى الزمان ، وهو الضامن الوحيد لبيان الحقيقة (١) •

ولقد أثبت الزمان بعد أكثر من خمسة وخمسين عاما أن أعمال زيدان باقية بعد زواله وارتحاله الى عالم البقاء ، لأنها كانت أعمـالا صحيحة ، والقانون الطبيعى يقول انه : « لا يصح غير الصحيح » •

---

(١) الهلال سنة ١٩١٢ • ومختارات دار الهلال سنة ١٩٤٦ •

أسلوب زيدان بين اللفظ والمعنى

اختار جرجي زيدان لطريقته في الصياغة أن يجرى على أسلوب سهل لا تعقيد فيه ، واذا كانت أمامه لفظتان لمدلول واحد ، فانه يؤثر اللفظة السهلة المستأنسة على اللفظة الغريبة المعجمية المستوحشة . أو بعبارة أخرى يؤثر اللفظ المستعمل على اللفظ المهجور .

ولقد بلغ من اغراقه فى ايثار السهولة أن اتهمه جماعة بالضعف وعدم الفحولة ، والبعد عن أساليب الفصاح . ولما كان زيدان يحب « الشعبية » فى نشر العلم وخاصة التاريخ والأدب العربى فانه آثر الأسلوب السهل ما دام هدفه الوضوح لقارئه . وقد حاول زيدان غير مرة أن يبين للقراء أسباب ايثاره لهذه الأساليب السهلة فقال فى مقدمة كتابه « تاريخ مصر الحديث » : (.. متحاشيا

الألفاظ المستهجنة ، والتعبيرات المعقدة ما أمكن ، متخـذا أفضـل أسلوب تفهمه العامة وترضاه الخاصة ، بغير اخلال ولا املال) وهذه الرغبة فى افهام العامة والتحدث اليهم بأسلوب يفهمونه ولا يشـق عليهم قد وجدت منفذا الى ناقديه باتهامه بضعف الأسلوب : فالشيخ ابراهيم اليازجى كان غير راض عن أسلوبه وبعض عباراته العامة وكثير من ألفاظه التى لم يكن يتحرى الدقة اللغوية فى تحريرها . والمرحوم أحمد أمين فى معرض الذكرى الخمسين لانشـاء مجلة الهـلال لم يفته أن يشير الى هذه الناحية . قائلا : (قد يؤخـذ عليه عدم الجزالة فى تركيب جملته ، وعدم القـوة فى أسلوبه ، وعدم الأناقة فى تأدية معانيه ، ولكنه كان يعمد الى ذلك عن مذهب فى الكتابة وعقيدة فى الأسلوب ، واختيار متعمد للمنهج الذى يسير عليه) (١) .

ولما كان هدف زيدان افهام قرائه وابلاغهم أفكاره ومعانيه عن طريق سهل لا عوج فيـه ولا التـواء ، فانه آثر طريق السـهولة والبساطة فى التعبير ، وتجنب تجنبا تاما الالتجاء الى الحلى والزخارف اللفظية التى كان لا يزال يستعملها فريق من كتاب أخريات القرن التاسع عشر المحافظين على الأنشاء والمحتفلين بالصياغة والعبارة أكثر من احتفالهم بالمعانى والأفكار . والحق أنه كان يمثل التطور الجديد فى الكتابة والنثر ، ذلك التطور الذى بدأت طلائعه تظهر فى كتابات

(١) الكتاب الذهبى للهلال .

الشيخ محمد عبده المتأخرة • وأعانته مجلته « الهلال » ـ بل أعانها هو ـ على نشر هذا اللون الجديد من الكتابة السهلة الواضحة • وقد كان من كتاب الأفكار والترسل والسهولة كذلك الدكتور يعقوب صروف رئيس تحرير المقتطف ، وكانت المجلتان بما لهما من قوة الانتشار ـ وخاصة مجلة الهلال ـ ذواتى فضل فى الدعوة الى الأسلوب الجديد فى الكتابة العربية الذى يمتاز بالسهولة والوضوح، وان كان صروف ظل محتفظا برصانة الأسلوب وقوته وتماسكه أكثر من جرجى زيدان الذى أسرف فى التسهيل والتجاوز الى حد كبير • ولم يسلم زيدان فى عصره ولا بعد عصره من انتقاد أسلوبه وطريقته فى التعبير • ومن النقد المعاصر لأسلوب زيدان ما كتبه الدكتور محمد يوسف نجم فى هذا الصدد حيث يقول : (أما أسلوبه العام فيمتاز بالوضوح والسهولة ، فكان يخاطب الناس بلغتهم التى كانوا يفهمونها ويتفاهمون بها فى صحفهم وكتاباتهم آنذاك ، لا بتلك اللغة الخاصة التى يلجأ اليها كتاب الأدب الصافى والشعر المنثور • وهو يكتب دون عناء أو كلفة بل يرسل قلمه حرا طليقا لا يقيده بقيد غير قيود الدقة والافهام • وهو لا يتعمد تجميل الأسلوب وتفخيمه ، ولذا أتت كتاباته عاطلة من حلى البديع والزخرفات الكتابية والزركشات البيانية ، والوصف المسهب الفضفاض ، فقد كان يتوخى تأدية فكرة وبلوغ غاية فحسب ، دون النظر الى الاعتبارات الفنية • وليس هذا بمبرر له على كل حال ،

فقد كان بأمكانه أن يحافظ على جمال الأسلوب ، دون التورط في الصنعة والتكلف والتعقيد) (١) .

ويخيل الى أن زيدان قد بولغ في الحملة على أسلوبه نتيجة للحملة القوية التى حملها الشيخ ابراهيم اليازجى في عصره . فقد كان اليازجى محافظا كل المحافظة على أساليب الفصاح وألفاظهم ، وكان لانتقاداته اللغوية أثر كبير في النفوس ، فتأثر بهذا النقد قراؤه وتابعوه في الحكم على أسلوب زيدان ، وظلت هذه التأثرات ممتدة بحكم المتابعة والتردد الى وقتنا هذا . والا فان أديبا وناقدا كبيرا مثل المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل لم يقلل من شأن أسلوب زيدان الواضح البسيط الدقيق حين نقد أحد كتبه في جريدة «الجريدة» سنة ١٩١٢ ، وان كان هيكل قد عرج في لطف ولباقة على تعابير زيدان الغريبة فيقول : (فانك تراه واضح الأسلوب تماما ، يكتب للناس بلغتهم المتعارفة التى يتفاهمون بها في جرائدهم ورسائلهم ، لا بتلك اللغة المخصوصة التى يتخذها جماعة من الكتاب درعا لهم يقيهم عند غموض الفكرة أو فساد التعابير التى يجيئون بها ، ويكتب من غير عناء ولا تكلف ، بل يرسل قلمه حرا الى أقصى درجات الحرية . لذلك يجيء أحيانا بتعابير لو استعادها الكاتب أمام نظره لرآها غير صالحة في الكتابة . كما أنه يجيء أحيانا أخرى بتعابير غريبة خاصة له ، كقوله مثلا في مواضع متعددة من كتابه :

---

(١) القصة في الادب العربى الحديث ، ص ١٩٦ .

« الى هذه الغـايه » يريد بذلك أن يقـول : « الى الآن » • ومثل ذلك تعبيران أو ثلاثة يجـدها القـارىء ثم يعتادها باعتيـاده لغـة المؤلف) (١) •

وبعد جرجى زيدان من الاحتفال بالعبارة الفخمة والأسلوب الانشائى كان نتيجة لاشتغاله بالصحافة الأدبية بانشائه مجلة الهلال• كما أنه كان نتيجة لميوله الخاصة فى التعبير عن أفكاره من أسـهل طريق وأقربه الى نفوس العامة • والا فان أديبا مثل المرحوم أحمد حسن الزيات قد اشتغل بالصحـافة الأدبيـة ، وكان صاحب مجلة « الرسالة » ورئيس تحريرها ، وكاتب مقالها الأول غالبا ، ولكنه لم يؤثر الأسلوب الشائع فى كتاباته بل اتخذ له أسلوبا بليغا متأنقا كل التأنق • فالمسألة اذن ليست مسألة صحافة أدبية ، ولكنها مسألة ذوق شخصى ، وميل ذاتى •

فالاحتفال بالانشاء لم يكن فى حد ذاته هدفا ولا غاية عنـد زيدان ، ولكن هدفه كان الافهام وابلاغ المعانى فى بساطة وسهولة• وما أصدق الشيخ يوسف الخازن وهو يقول عن جرجى زيدان فى هلال نوفمبر سنة ١٩١٤ : (وقد أدرك فقيدنا أن الانشاء انما هو فى الحقيقة أداة تفاهم بين الكاتب والقارىء ، يراعى فيه ما يراعى فى الأدوات من المتانة والبساطة ، ولا سيما فى الصحافة ، فخالف

---

(١) فى أوقات الفراغ « للدكتور محمد حسين هيكل • ص ٢١٧ •

بذلك الذين يعدون الانشاء غاية بحد ذاته ، فيصرفون قسما عظيما من وقتهم وعنائهم في اتقانه) .

وقد وصف أحد المحتفين بجرجي زيدان أسلوبه الكتابي بأنه (صورة نفسه ، وأنه الأسلوب التلغرافي البسيط الواضح الذي يحرص على المعنى أكثر مما يحرص على اللفظ ، فهو لا شك كان منبسط النفس غير معقد الأحاسيس) (١) . ثم عاد هذا الكاتب مرة أخرى الى أسلوب زيدان فوصفه بأنه (أسلوب العلماء الذين يؤمنون بأن الألفاظ أدوات للمعاني) (٢) . ولكن هذا الكاتب نفسه قد عاد في الكتاب نفسه يعيب أسلوب زيدان بأن معالم أسلوبه لم تكن واضحة وضوح أسلوب الأدباء ، فهو عالم وباحث ومفكر (٣) . وترى الاضطراب باديا في هذه الأحكام ، فكيف يكون الأسلوب أولا بسيطا واضحا ، ثم يعود غير واضح المعالم مثل أسلوب الأدباء ؟

وقد وصف الأستاذ أنيس المقدسي أسلوب جرجي زيدان بأنه (سهل يأنس به الجمهور ولا تنكره الخاصة) (٤) . وهذا الوصف مشتق من وصف زيدان نفسه لأسلوبه الذي يقول فيه : (أفضل أسلوب تفهمه العامة ، وترضاه الخاصة) كما أوضحنا في بداية هذا الفصل .

---

(١) من أعلام الفكر والادب . ص ٨٥ .

(٢) المصدر نفسه . ص ٨٦ .

(٣) المصدر نفسه . ص ٨٦ .

(٤) الفنون الادبية وأعلامها . ص ٥١٦ .

ولم يفت مؤلف كتاب « تطور الرواية العربية الحديثة » أن يتناول أسلوب زيدان فى رواياته التاريخية ، ولم يتجاوز ذلك الى أسلوبه فى دراساته الأدبية والتاريخية . فيقول عن أسلوبه فى الروايات : (.. يعمد الى أسلوب سهل مبسط أقرب الى أسلوب السرد العلمى المبسط الذى يفيد القارىء ويوصل اليه معلوماته). وقد كان خليقا بزيدان أن يكون أسلوبه فى رواياته غير أسلوبه فى مباحثه ودراساته . فان الرواية تحتاج الى شىء من فنية العبارة وأناقتها وعلو أنشائها ، ولكن زيدان لم يحفل بذلك فى رواياته لأنه كان يرمى من ورائها الى تعليم التاريخ عن طريق القصة .

وقد اضطر زيدان فى رواياته الى استعمال بعض التعبيرات العامية فى الحوار ، ففى رواية « استبداد المماليك » ـ مثلا ـ نجد صورا من عبارات تمثل لغة الناس فى عصر المماليك ، وقد تسربت اليه هذه العبارات من كتب التاريخ التى كتبت فى ذلك العصر . وليس معنى هذا أن زيدان كان ميالا الى العامية أو داعيا لها ، بل على الضد من ذلك نراه مناصرا للفصحى على العامية . فحينما ألقى المستر ويلكوكس المهندس بالرى المصرى محاضرة فى سنة ١٨٩٣ عنوانها « لم لم توجد قوة الاختراع لدى المصريين الآن » . وكان مكان القائها فى نادى الأزبكية ، سمع الناس من هذا الداعية الداهية كلاما غريبا ، فقد زعم هذا الرجل أن أهم عائق يمنع المصريين من الاختراع هو أنهم لا يزالون الى يومه يؤلفون ويكتبون باللغة العربية الفصحى ، ولو أنهم تخلصوا منها ، وألفوا وكتبوا بالعامية لأعان

ذلك على خلق ملكة الابتكار وتنميتها عندهم • وحينما انتهى ويلكوكس من ألقاء محاضرته وتم نشرها سنة ١٨٩٣ فى مجلة «الأزهر» التى آلت ملكيتها الى ويلكوكس نفسه وشريكه الأستاذ أحمد الأزهرى ، وكان نشرها بلغة ركيكة ، لم يسكت جرجى زيدان على هذا الكلام الفارغ ، ورد على ويلكوكس يخطئه فيما ذهب اليه من رأى ، وارتأى زيدان أن من الممكن التقرب الى الأفهام بتجنب الألفاظ الغريبة والأساليب المعقدة ، وختم رده المقنع المفحم ببيان مذهبه وهو أنه (يجب أن تكون عبارة الكاتب فى البحوث التاريخية والأدبية عبارة بسيطة ، واضحة ، سلسة ، خالية من كل تعقيد ، حتى تكون المعانى جلية للمطالع كل الجلاء ، لا يقف لحظة لفهمها ، ولا يحتاج الى مراجعة المعاجم اللغوية) • وعد زيدان عجز الكاتب أو المؤلف عن افهام الناس نقصا فى واجبات صناعته ، واخلالا بشروط مهنته •

وتفطن زيدان فى خلال رده على ويلكوكس ومن ذهب مذهبه فى الدعوة للعامية الى أننا لو استبدلنا العامية باللغة الفصحى ، تكون كمن ينقذ نفسه من شر ــ لو صح أن الفصحى شر ــ ليقع أو يوقع نفسه فى شر أعظم ، لاختلاف العامية باختلاف الأصقاع والأقطار العربية ، فنكون قد عددنا اللهجات الأقليمية على حين أن اللغة الفصحى واحدة وموحدة بين أبناء العروبة فى كل أرض • فالعامية توجد تباعدا بين أبناء العروبة ، وتخلق بينهم هوة سحيقة ، على حين تؤلف اللغة الفصحى ما بينهم •

ولقد وقف زيدان من الألفاظ الغريبة ، والاستعمالات القديمة موقفا محددا لم يحد عنه ؛ وعنده أن الذين يكتبون أو يؤلفون لبيان قدرتهم على الانشاء والغوص على المعانى العويصة والألفاظ الغريبة انما يكتبون لأنفسهم أو لطبقة خاصة لغرض خاص ، ومع فضلهم ومنزلتهم فانهم يكتبون لغير الخدمة العامة (١) .

وكان ايمان زيدان بعدم التقليد والمحاكاة فى أسلوب الكتابة والتأليف وفى استعمال الألفاظ ، ايمانا بالتطور اللغوى للألفاظ والأساليب ، وهو دليل على حياة اللغة وحيويتها وبعدها من الجمود على قوالب مصبوبة . وكان يرى أن من حاول الوقوف فى سبيل التطور اللغوى فقد عارض سنن الطبيعة . فان الألفاظ القديمة تذهب ويحل محلها ألفاظ جديدة . على أن ابتعاد زيدان من المعاظلة فى استعمال الألفاظ الغريبة ، لم يعن بحال أنه كان منحرفا الى دعوة العامية التى قامت فى أيامه ، وعادت بعض الأصوات الخافتة لها من قريب .

وكان زيدان ـ بالاضافة الى تطبيقه العملى فى مؤلفاته وكتاباته للألفاظ والعبارات المألوفة ـ لا يدع مناسبة تمر دون الهجوم على الأساليب المصطنعة الحافلة بالزخارف اللفظية والاغراب . ففى السنة الخامسة من الهلال ينتقد بعض الكتاب الذين يستعملون غير المألوف

(١) تاريخ آداب اللغة العربية . جـ ٢ ـ المقدمة ص ٣ ـ ٤ .

من الكلام اظهارا لمقدرتهم الانشائية فيقول : (وقد قرأنا فى كتاب صدر بالأمس عبارة تمثل ما نحن بصـدده أراد بها كاتبها وصف المتحاربين فقال :

وقد هاجت منهم الضراغم ، وطارت القشاعم ، وثارت الغماغم، وماجت الخضارم) ، وكانت البساطة والسلاسة والسهولة والوضوح الذى ميز كتابات زيدان واضحا فى مجلة الهلال أولا ، وفى مؤلفاته الكثيرة ثانيا . والى هذه البساطة يعزى السر فى انتشار مجلة الهلال، وانتشار كتب زيدان انتشارا لم يعهد له مثيل فى الانتاج الحديث .

ولعلنا بعد هذه الدراسـة السريعة لأسلوب زيدان نرى من التوضيح أن نعرض نموذجا لكتابته يؤيد ما ذهبنا وذهب اليه النقاد ، فان القضـايا بغير مثـال لا تتضح معالمها فى الأذهـان . وأسـلوبه التقريرى فى آداب اللغة العربية والتمدن الاسلامى وتاريخ مصر الحديث معروف متداول بين أيدى قراء هذه الدراسات . أما أسلوبه فى البحوث الاجتماعية فأن المقال التالى ــ وهو مما نشره الهـلال سنة ١٩١٢ ــ يدل عليه تمام الدلالة ، ويمثله أصدق تمثيل .

***

قال جرجى زيدان بعنوان « لا يصح غير الصحيح » :

ان بقاء الأصلح من القـواعد الطبيعيـة الداخلة فى ناموس النشوء والارتقاء . وهو عام يجـرى على كل شيء من الطبيعيـات

والمعنويات والأدبيات . فكما يقضي على بعض الحيوانات بالانقراض لأنها لا تصلح للبقاء فيما يحيط بها من البيئة ، فهو يقضي أيضا بذهاب ما لا يصلح للهيئة الاجتماعية من الآراء أو القوانين ، واستبدالها بما يلائمها . ويحكم بانقراض العادات أو الطقوس أو نحوها مما لا يناسب شئونها . وقس على ذلك سائر أحوال الاجتماع ، مما لا يحتاج الى تطويل فى اثباته . وانما الغرض الآن اثبات ناموس آخر ، هو فى ظاهره اجتماعى أو أدبى ، لكنه ينطبق على سائر المجارى الطبيعية ، ونعنى به قولهم : « لا يصح غير الصحيح » .

ان هذه القضية من الظواهر الطبيعية ، بل هى من أصدق تلك الظواهر ، لأن الطبيعة بذاتها لا تعرف غير الصحيح ، ولا تقبل التملق أو التمويه ، ولا تعرف للسبب الواحد الا نتيجة واحدة ، ولا عبرة لديها بالظواهر الخارجية ، لأنها تعول على الجواهر دون الأعراض ، فاذا أدنيت قطعة من الحديد الى مغناطيس اجتذبها اليه لأنها حديد . ولو جعلتها بين عشرات من قطع المعادن المختلفة لاستخرجها من بينها وأن تشابهت ظواهرها ، ولا يخدعه تلوين تلك القطعة بغير لونها الأصلى ، أو تشكيلها بغير شكلها .

على أن هذا الناموس يشمل أيضا عالمى النبات والحيوان ، وأن لم يظهر فيهما واضحا مثل ظهوره فى الجماد ، لتعدد القواعل الحيوية ، واختلاط أسبابها ونتائجها .

فاذا انتقلنا الى التفاعل المعنوى أو الأدبى فى نظام الاجتماع رأينا هذا الناموس أقل ظهورا وأبطأ انتاجا لأنه يتوقف على قوى أكثر تشوشا واختلاطا • ولكن لا بد من هذا الظهور عاجلا أو آجلا • فكم من الآراء العلمية طمستها الأغراض ، وحالت دون ظهورها دهرا طويلا ، ثم ظهرت كالشمس وفاز أصحابها ، كما فاز القائلون بدوران الأرض مثلا بعد أن حكم على قائليه بالكفر •

وهو يصح أيضا فى الآراء الاصلاحية اذا وقفت فى سبيل ذوى الأغراض من المقلدين الجامدين ، فانها قد تبقى قرونا يغشاها غبار التمويه والمغالطة ، ثم تظهر ولو بعد حين ـ كان ذلك حظ أكثر المصلحين من الفلاسفة القدماء الى الشارعين والأنبياء •

وكما أن الآراء الصحيحة قد يغشاها التمويه ولا تظهر الا بعد حين ، فالآراء الفاسدة قد يحييها التمويه حينا فلا يظهر فسادها الا بعد مرور الأجيال ، لكن لا بد من ظهوره • وقس على ذلك ما يقبل المبالغة أو التمويه من الأعمال التجارية أو الصناعية ، فان أصحابها يعلنون عنها ويحسنونها ويبالغون فى اطرائها ، لكن نجاحها أخيرا لا يكون ألا على قدر ما تحويه من الصحة • ويدخل فيه الاعلان عن بعض العقاقير الدوائية الخاصة ببعض الأمراض ، فان أصحابها يجعلون أكثر تعويلهم على الاعلان ونشر الشهادات ونحوها ، فاذا لم يكن الدواء مفيدا ذهب الاعلان عبثا • ولا خلاف فى أن الاعلان يفيد صاحبه ، لكنه لا يخفى الحقيقة ، وانما يعجل

ظهورها . واعتبر ذلك فى الاعلان عن الكتب وغيرها من ثمار القرائح ، فانها أكثر تعرضا للغرور من سائر « المعروضات » ، لأن الانسان مفتون ببنات أفكاره ، وكتابنا ما يزالون بعيدين عن النقد الصحيح فى بيان حقيقة ما يعرض عليهم من المؤلفات ، ويندر فيهم من يخلص النية فى نقد الكتاب وبيان حقيقته .

وقد يكون من أسباب التمويه فى وصف ثمار القرائح ثروة المؤلف أو وجاهته فى الهيئة الاجتماعية ، أو نفوذه فى الدولة . فينصرف هم الكاتب الى اطرائه تزلفا أو تهيبا . وبالعكس اذا كان المؤلف متهما فى دينه ، أو مخالفا للمقرظ أو المؤرخ فى المبدأ ، أو الرأى ، أو المذهب ، فانه يبخسه حقه ، أو ينحى عليه بالطعن . وهذه العلة قديمة فى الشرق ، أصيب بها أكثر المؤرخين عند ذكر معاصريهم من الأدباء والشعراء .

واعتبر ذلك فى سائر العصور الى الآن ، ولا سيما فى الشرق، فأن أهله تعودوا التملق والتزلف والمجاملة ، حتى أصبح طلاب الأدب لا يعولون على ما تقوله الصحف فى وصف الكتب ، ويندر لأحدهم أن يبعث فى اقتناء كتاب لمجرد ما يرى من تقريظه فى الصحف ، خلافا لما يفعله قراء اللغات الأفرنجية ، فانهم يثقون بما يقوله أرباب النقد فى الصحف الراقية . وأما الانصاف الحقيقى فى تقدير الأعمال فانه موكول للزمان ، وهو الضامن الوحيد لبيان

الحقيقة ، اذ تتوالى الأجيال ويمضى المعاصرون بما تضمه جوارحهم من تضاغن أو تحاسد ، ويبقى العمل ، فينظر اليه أهل الأجيال التالية بعين خالية من الغرض ، فيحلونه محله من الاجلال أو الاغفال ، عملا بسنة البقاء للأصلح • وهى مبنية على القاعدة التى صدرنا بها هذه المقالة ، نعنى « لا يصح غير الصحيح » •

موقف حائر

لقد تعرض جرجي زيدان بدراساته لتاريخ العرب والاسلام، وبرواياته التى تتناول التاريخ الاسلامي على مداه الطويل، لانتقادات واتهامات كثيرة من الفرق الاسلامية المختلفة ، والطوائف المتعددة. والحق أنه فتح على نفسه بابا ما كان أغناه عنه ! ولكن الرجل كان باحثا ، وكان يفتش فى تاريخ واسع متشعب للعرب والمسلمين ، وما كان يدرى أنه لن يرضى أحدا مهما وقف موقف المحايد . حتى المسيحيون أنفسهم لم يسلم من انتقاداتهم .

والذى يكتب فى تاريخ العرب والحضارة العربية الاسلامية لا بد أن يصادفه كثير أو قليل من أصحاب الميول والنزعات المختلفة الذين قد لا يرضون عن كلامه ، وقد يسيئون الظن به ويتهمونه بالهوى أو الميل مع هذا أو ذاك .

وهناك من المسائل المذهبية الشائكة ما لا يسلم من يخوضها ـ ولو متحرزا ـ من اتهامه بالتعصب أو التحزب لفريق على فريق. ومهما بلغ الحذر والحرص بالباحث المؤلف فى أمثال هذه الشئون فلن يسلم من التهمة . وقد تحمل الريبة على أن يساء فهم كل كلمة يقولها وأن تنزل فى غير منزلتها التى أرادها كاتبها .

وقديما اتهم الامام ابن حزم الأندلسى وشنع عليه لأن له رأيا يخالف رأى الشيعة فى عبد الرحمن بن ملجم قاتل الامام على ابن أبى طالب . وما زلت أذكر الحملة الشديدة التى حملها عليه الأستاذ العلامة عبد الحسين أحمد الأمينى فى كتابه « الغدير » (١). وما زلت أذكر ما تعرضت له كتب « العقد الفريد » ، و « الملل والنحل » و « البداية والنهاية » لابن كثير المؤرخ ، و « محاضرات تاريخ الامم الاسلامية » للشيخ محمد الخضرى ، و «فجر الاسلام» و « ضحى الاسلام » لأحمد أمين ، و « حياة محمد » للدكتور محمد حسين هيكل وغيرها من نقد عنيف ، وهجوم شديد لأنها تناولت مسائل تمس بعض المذاهب الاسلامية ، أو تعرضها من وجهات نظر مغايرة ، أو تسكت عن ابداء الرأى فيها على حين يرى أتباع هذا المذهب أو ذاك وجوب تناولها .

ومن هنا كان موقف جرجى زيدان مؤرخ الفكر الاسلامى والحضارة الاسلامية حرجا كل الحرج . فهو لا يعدم ان أرضى هذا

---

(١) الغدير ـ جـ ١ ص ٢٩٠ .

الفريق أن يسخط فريقا آخر ! وهو لا يعدم ان ذكر رجالا من أهل السنة أن يتهم باغفال رجال من أهل الشيعة •

وعلى الرغم من الحيدة المطلقة ، ومن التجرد من التحزب اللذين اتبعهما زيدان وهو يؤرخ للعرب والاسلام وتمدنهما ، فأنه لم يسلم من سهام الناقدين تتهمه بما لا يكون قد خطر للرجل على بال •

وقد أخذت الاتهامات تتوالى على الرجل من كل جانب منذ اللحظة التى امتشق فيها القلم ليؤلف • وقد تكاثرت عليه الاتهامات الى حد لم يجد معه بدا من الأشارة اليه فى مقدمات بعض كتبه • ففى مقدمته لتاريخ آداب اللغة العربية ـ الجزء الثالث ـ يقول ويكاد الأسى يعتصره : (تصدينا للكتابة فى تاريخ الاسلام والقراء لم يتعودوه ، والمسلمون معجبون بتاريخهم ، وغير المسلمين لا يعرفون عن الأسلام ألا ما وصلهم من مطاعن الأجيال المظلمة ، فكان حظنا من المؤاخذة مضاعفا ؛ غضب بعض المسيحيين لأننا ـ على زعمهم ـ بالغنا فى ذكر فضائل الاسلام حتى اتهمنا بعضهم بالمروق من النصرانية ، وقال بعض المسلمين اننا قصرنا فى ذكر فضائل الاسلام) •

فتصور الى أى حد بلغ موقف الرجل وحيرته بين أهل الأديان والمذاهب ، حتى لقد اتهمه بعض قومه من المسيحيين بأنه

مارق من دينه ، واتهمه بعض المسلمين بأنه لم يذكر فضائل الاسلام على أكمل وجوهها ، فقصر فى ذكرها •

ولقد كانت الحساسية التى تقابل بها مؤلفات زيدان فى العرب والأسلام بالغة شديدة عند أهل كل فريق من تلك الفرق المتعددة فى الأسلام • فهم يقرءون كل كلمة من كتبه • ولا يقفون عند ظاهر معناها ، بل كثيرا ما كانوا يقلبونها على معان مختلفة ، وقد يحملونها أكثر مما تحتمل ، وقد ينسبون الى الرجل ما لم يفض به صريح عبارته •

وكان المتهمون لزيدان لا يكتفون بالاشارة العابرة ، واللمحة الخاطفة ، ولكنهم كانوا يطيلون القول فى اتهامه ، حتى لقد نشرت مجلة « العرفان » فى صيدا التى أنشأها المرحوم الشيخ أحمد عارف الزين نقدا طويلا لأحد كتب زيدان زادت صفحاته على الخمسين صفحة •• وقد وقع المقال شيعي نجفى من أسرة كاشف الغطاء (١)، وفيه عتاب لزيدان لأنه أهمل أن يذكر فى كتابه بعض علماء الشيعة الأمامية الذين ذكر أسماءهم كاتب المقال • وقد لاحظ زيدان أن أصحاب هذه الأسماء ـ التى زعم الكاتب اهمالها واغفالها ـ ليسوا من علماء الأمة المشهورين ، ولم يخلفوا آثارا تفيد المطالعين ، فهم محصورون فى نطاق ضيق لم يمتد الى سعة غيرهم من المذكورين •

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية • جـ ٣ ص ٦ •

ولقد لاحظ بعض الذين ترجموا لزيدان أو ألموا الماما سريعا بسيرته ما تعرض له من سخط بعض المسلمين على آرائه التى لم يأت بها الرجل من عنده ، ولكنه كان ينقل عن مصادر متباينة فى الاعتقادات والمذاهب والميول ، ولعلهم ــ وهم مسلمون محافظون ــ لم يرضوا أن يعمد زيدان ــ وهو الكاتب المسيحى ــ الى أن يخوض فى موضوعات اسلامية بحتة كما يقول المستشرق كراتشكوفسكى(١)

والحق أن الباحث فى أمثال الموضوعات التى عالجها زيدان فى تاريخ الأدب العربى وتاريخ التمدن الأسلامى معذور حين لا يتأتى له ارضاء الناس على اختلاف ميولهم • وكأنما أراد الرجل فى مقدمة لأحد تصانيفه أن يلتمس لنفسه العذر فيما وقع فيه من الحرج ، الذى هو ليس حرجا مختصا بزيدان وحده ، ولكنه حرج لمركز الكاتب الشرقى عموما بين قرائه حين يتحدث فى مثل هذه المسائل، فليس فى الدنيا جمهور استحكم فيه اختلاف المشارب والأهواء والأغراض مثل قراء العربية ، فهم مختلفون موطنا ومشربا ومذهبا وتربية ، فلا يتأتى لكاتب ارضاؤهم جميعا ، ولو أوتى علم الأولين والآخرين (٢) •

ولقد بلغ من حيرة زيدان فى هذه الاتهامات أن ميزان التهم لم يكن على سواء فى أيدى المتهمين المختلفى المشارب والأهواء ،

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية .

(٢) مقدمة الجزء الثانى من تاريخ آداب اللغة العربية .

فاذا أطال فى موضوع لم يعدم من يقول له انك أطلت فيما لا تحمد فيه الأطالة ، واذا أوجز فى موضوع لم يعدم من يتهمه بالتقليل من شأن هذا الموضوع . واذا سكت عن موضوع قيل له لم أغضيت عن تناوله . وقد استطاع الدكتور محمد حسين هيكل أن يقف موقف الاتهام لزيدان بأنه فى كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » قد سكت عن الكلام على القرآن الكريم والحديث النبوى سكوتا مطلقا ، كأنهما لا يدخلان فى تاريخ أدب اللغة العربية، بينما يدخل الطب والكهانة. وأخذ الدكتـور هيكل يوجه الاتهـام الى جـرجى زيدان قائلا : (وأحسب أن لنا من الحق أن نسأل عن سبب هذا السكوت . لم لم يذكر المؤلف شيئا عن التاريخ الأدبى للقرآن ، وصلته بالأدب الجاهلى والفرق بينهما ؟ القرآن كتاب كريم ، ذو شأن عظيم ، لا فى أمر الدين الاسلامى فقط ، بل كذلك فى أمر آداب الأمة العربية وسياستها وكل جهات حياتهـا . لذلك كنا نود أن يوقفنـا كاتب « تاريخ آداب اللغة العربية » على الأصول الأدبية الذى استمد منها هذا الكتاب وجوده » (١) وأخذ الدكتور يتلمس الأسـباب ويتصيد الأعذار لزيدان فى هذا الاغفال ، ثم خلص فى النهاية الى استنتاج بأن زيدان لعله رأى أن فى كلامه عن القرآن والحديث وأصولهما وقيمتهما الأدبية ما يمس بعض العقائد . وهذا استظهار غريب من الدكتور هيكل ، لأن الخوف من المسـاس ببعض العقائد لا يعالج

(١) فى أوقات الفراغ — ص ٢٣٨ .

بالاهمال والاغفال ، ولكنه يعالج بالحيدة والحذر فى تناول الموضوع. وليس التأريخ للقرآن والحديث موضوعيا مما يخشى منه المساس .

وبالغ بعض المتهمين لزيدان ، فاتهموه بالشعوبية ، والتعصب لغير العرب على العرب ، ومحاولة التهوين من شأن العرب والاسلام. وكان قائد هذه الحملة الشيخ شبلى النعمانى المصلح الهندى . ولكن من حسن حظ زيدان ان هذه التهم من جانب كان يقابلها من جانب آخر تقدير له وأشادة بمواقفه الكريمة من العرب والاسلام؛ فالمرحوم طاهر الطناحى يشيد بخدمات زيدان للعرب والاسلام(١)، والأستاذ أنيس المقدسى يقرر أن روايات زيدان التى تدور على تاريخ العرب والاسلام قد أحدثت فى نفوس النشء ، جيلا بعد جيل ، وعيا قوميا ، وحركت فيهم الميل الى دراسة التاريخ العربى (٢) . وصاحب كتاب « من أعلام الفكر والأدب » يؤكد أن جرجى زيدان كان يتناول ذلك بحسن نية على أساس أنه كاتب عربى يكتب للعرب (٣) . ومعنى هذا الكلام أنه ليس من المعقول أن يحاول كاتب عربى قح ـ مثل زيدان ـ أن يجرد قومه العرب من فضائلهم أو يغمزهم فى تاريخهم .

وكيف يخطر على بال متهم أن يقول ان زيدان كان متعصبا

---

(١) عصاميون عظماء من الشرق والغرب ص ٧٦ ـ ٧٧ .

(٢) الفنون الادبية وأعلامها . ص ٥١٧ .

(٣) من أعلام الفكر والادب . للأستاذ أنور الجندى ص ٨٩ .

على العرب ، مع أنه فى أكثر كتبه يعلى كثيرا من شأنهم ، حتى انتهى به ذلك الى حدود المغالاة والمبالغات • فهو يضع العرب ، من حيث الثقافة والعقلية ، فى مستوى لا يقل عن مستوى الأمم ذات الحضارات القديمة كاليونان والرومان ، وينفى عن العرب ما قد توهمه البداوة جهالة وتخلفا ، ويرفعهم ويرفع حكماءهم فى الجاهلية الى مرتبة فى الفكر والنظر لا تقل عن نظر أعظم الفلاسفة (١) •

وقد بلغ من غلو زيدان فى تقديره للعرب من ناحية علومهم وحضارتهم أن الدكتور شوقى ضيف وهو يعلق تعليقاته ، ويضيف اضافاته الثمينة فى هامش الطبعة الأخيرة من تاريخ الآداب العربية لزيدان ، وجد نفسه مضطرا لأن يعلق على هذا الغلو قائلا : (ينبغى ألا نبالغ فى معرفة عرب الجاهلية بالطب ، فأن ما كان عندهم من ذلك لا يتجاوز ملاحظات أولية بسيطة) (٢) كما لم يفت الدكتور محمد حسين هيكل أن يلاحظ هذا الغلو من زيدان فى تقديره لعلوم العرب فى الجاهلية ، فقال : (نبدأ فننقد الصورة التى وضع بها ــ زيدان ــ معارفه التمهيدية • فأن الذى يقرؤها يكاد يتصور أن عرب الجاهلية ــ على أنهم قوم بدو رحل ــ قد بلغوا من العظمة فى العلم والأخلاق والسياسة ما يناهض أرقى الأمم فى القرن العشرين ،

(١) أنظر تاريخ آداب اللغة العربية جـ ١ ــ ص ٣٤ •

(٢) تراث الانسانية . المجلد الرابع . ص ٨١٩ من بحث لمحمد عبدالغنى حسن •

وذلك أمر لا يسهل تصديقه) (١) • وممن انتقد على زيدان مبالغته في بيان مآثر العرب والتنويه بفضلهم الأب لويس شيخو اليسوعي (٢) •

وعجيب جدا أن يتهم زيدان في وقت واحد بالتعصب على العرب ، ثم يعاب بأنه بالغ في التعصب لهم والتنويه بفضلهم ! وأن يتهم بتقصيره في حق الاسلام ، ثم يمدح في الوقت نفسه بأنه خدم الاسلام ! وهذا التناقض هو الذي أوحى لنا بعنوان الفصل الذي نرجو أن يكون قد وضع الأمر في نصابه •

---

(١) في أوقات الفراغ ، ص ٢٢٢ •
(٢) تاريخ آداب اللغة العربية • ج ٢ ص ٧ •

بين العلم والسياسة

لقد كان جرجى زيدان من رهبان العلم الذين عكفوا على خدمته ، وترهبوا فى محرابه ، ولم يمزجوا بين الاشتغال بالعلم والسياسة الا بذلك القدر الضرورى الذى لا يجعل من المرء انسانا متورطا ، أو منعزلا عن محيطه الذى يعيش فيه .

ولقد فرضت بعض ظروف معينة على طائفة من علمائنا وأدبائنا وشعرائنا أن يخوضوا معترك السياسة ، ويسهموا فيها بالقدر الذى سمحت به ظروفهم وقدراتهم والجو المحيط بهم . كالبارودى الشاعر ، وعبد الله فكرى الكاتب المترسل ، وأحمد فارس الشدياق الأديب اللغوى ، وأديب اسحاق ، وابراهيم المويلحى ، والشيخ محمد عبده ، والأمير شكيب أرسلان ، والدكتور فارس نمر وغيرهم . ولكن بعض علمائنا لم يحبوا السياسة ، ولم يتورطوا فى

الاشتغال بها ، كالدكتور يعقوب صروف محرر المقتطف الذى ترك الاشتغال بالسياسة لزميله ورفيقه الدكتور فارس نمر ، وتفرغ هو للعلم ومسائله فى المقتطف .

وجرجى زيدان غلب عليه الاشتغال بالعلم والأدب والتاريخ، ولكنه لم يجرد نفسه تجريدا تاما من المشاركة فى أحداث عصره بالميل والرأى والمدافعة .

ولقد عاصر جرجى زيدان حوادث الانقلاب العثمانى، وحركة الدستور ، وحركات الصراع العربى للتخلص من السيادة العثمانية. ولم يشأ الرجل أن يعيش على هامش الأحداث أو بمعزل منها ، فكان له رأى واضح صريح فى ذلك .

فحين أعلن الدستور فى تركيا تحت ضغط حزب الاتحاد والترقى فى ٢٤ يوليو سنة ١٩٠٨ سرت فى البلاد فرحة ، كان لها دوى عظيم بين أبناء الشرق العربى الذين كانت لا تزال تربطهم بالدولة العثمانية روابط رسمية ، فوق روابط الأخوة الاسلامية التى كانت تجمع بين المسلمين فى كل أرض . وما كاد الناس فى تركيا والبلاد العربية المرتبطة بها سياسيا يفرحون بالدستور الجديد ، حتى خلع السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٩ ، وولى مكانه أخوه السلطان محمد رشاد . وكان فرح الناس بخلع عبد الحميد

لا يقل عن فرحهم بالدستور (١) ، وفرح العـرب بالعهد الجـديد والتمسوا فيه سبيلا الى الاصلاح ، وشارك شعراء ذلك العهد فى الفرح بالدســتور وتعليق الآمال الكبيرة عليــه . وما كاد النـاس يفرحون باعلان الدستور حتى سادت موجة من التشـاؤم وخيبـة الأمل فى نظامه . فقد كانوا يرجون منه أن يغير الأحوال ، ويصلح المائل من الأمور فى يوم وليلة . ولكن الأتراك لم يكونوا على تمام الاستعداد للحياة الدستورية الجديدة التى فوجئوا بها ، وظهر من تطبيقات الدستور على الحياة أن هناك من وجوه النقص فيه ما يوجب اصلاحه اصلاحا جذريا .

وانقسم الناس فى ذلك الى فرق ، فمنهم المتعجلون للاصلاح، ومنهم الذين ينشدونه مع التريث ، وعدم الطفرة . ولم يجد زيدان من الحق أن يسكت ، وقد ازدحمت المعركة بالمتكلمين نثرا وشعرا ، حتى لقد أخذ معروف الرصافى شاعر العراق ينظم قصائده متهكما يائسا ، وأخذ الشاعر القروى فى البرازيل يرسل صوته من بعيد فى المهجر الجنوبى متحسرا على الآمال والأمانى التى ضاعت ، ولم يجد النداء ، ولم يلب غير تجـاوب الأصـداء ... واذا بنا نرى جرجى زيدان يدلى بدلوه بين أصحاب الآراء ، فيكتب مقـالا فى مجلة الهلال سنة ١٩١٠ عقب زيارة له الى سوريا ولبنان ، فيلاحظ موجة التشاؤم واليأس التى سادت بعض النفـوس ، ويحـذر من

---

(١) الاتجاهات الادبية فى العالم العربى الحديث . ص ٨٥ ــ ٨٦ .

التمادى فى ذلك ، ويترفق فى مطالبة المصلحين العثمانيين بالأصلاح السريع مع ما عانته الدولة العثمانية فى عهود الاستبداد الطويلة ، فيقول : (وطائفة تعجلت استثمار الدستور ، فهى تريد أن تصير المملكة العثمانية التى قضت قرنين فى حال الاحتضار ، وقد نضبت ماليتها ، وأجدبت أرضها ، وأظلمت مدنها ، وتخربت طرقها وشوارعها ، وفسد كل شىء حتى أخلاق أهلها ، واختل نظام اجتماعها ، وفرق التعصب بين طوائفها ومذاهبها ـ تريد هذه الفئة من المنتقدين أن تصير هذه المملكة فى سنتين مثل أرقى ممالك أوربا، وهذا مستحيل ..) .

والأناة والتمهل الذى يطالب به زيدان رجال السياسة فى تركيا تنفيذا للدستور ، هما وسيلته التى ينادى بها فى كل حركة دستورية أو نيابية . فهو يرى أن الدستور والحكم النيابى لا ينفع ما لم تكن الأمة مهيأة له ومستعدة لقبوله . ويبدى زيدان رأيه هذا عن الحكم النيابى فى مصر من مقال له فى مجلة الهلال سنة ١٩٠٧ عنوانه « الحكومة الدستورية » . فهو يستعرض الحركات السياسية والدستورية فى مصر فى القرن التاسع عشر الى أن قامت مصر تطلب أنشاء مجلس النواب (ولم يكن ذلك الطلب عن أخلاص وروية ، فجاء مساعدا على ما حدث فى مصر من الانقلاب السياسى المعلوم بعد الحوادث العرابية . والسبب الحقيقى فى ذلك أن الأمة لم تكن مستعدة لقبول هذا الأصلاح ، فتناولته كما يتناول الطفل الرضيع

قطع اللحم ، وهى مغذية بنفسها ، ولكن معدته لا تقوى على هضمها، فالجوع خير له منها • والأمة اذا لم تكن تهيأت للحكومة الدستورية فالدستور يضرها ، والأمور مرهونة بأوقاتها) •

على أن هذه النظرة المستأنية المترفقة فى الأمور ، تدل على إعتدال الرجل فى رأيه وعدم تطرفه فى أحكامه السياسية ، فهو لا يذهب الى الأطراف المتناقضة ولكنه يقف موقف المعتدل ، وقد أشار الى هذا أحد المؤرخين له بقوله : (ولقد كانت آراء جرجى زيدان وأفكاره ومذاهبه فى غاية الاعتدال) (١) • واعتدال زيدان فى السياسة هو قرين لاعتداله فى ميادين الفكر والعقل ، والى هذا الاعتدال الأخير يشير كراتشكوفسكى بقوله : (ولم يكن زيدان من أصحاب الأفكار الثورية فى الميدان العقلى) ، أما اعتداله فى السياسة فقد وصفه الأستاذ أنيس المقدسى بقوله : (ومن المعتدلين الناظرين الى الأمور بعين الروية جرجى زيدان ، منشىء الهلال ، فهو من طلاب الأصلاح السياسى ، ولكنه لم يكن مناوئا للعثمانية• والذى يطالع أعداد مجلته ، ولا سيما فى السنين الأولى ، يراه عطوفا على الدولة ــ يعنى الدولة العثمانية ــ ولعله كان يرى ، كما كان يرى أديب أسحاق وأصحاب القطم وأمثالهم أن الرابطة العثمانية لازمة للشرقيين ، وأن طلب الأصلاح لا يعنى القضاء عليها، أو استبدال رابطة أخرى بها) (٢) •

---

(١) من أعلام الفكر والادب • ص ٨٩ •

(٢) الاتجاهات الحديثة فى العالم العربى • ص ٢٤ •

ولم تكن ميول زيدان السياسية ونزعاته ليجلوها فى مقالاته السياسية التى كان يكتبها فى الهلال من حين الى حين •• ولكنه كان يبثها حتى فى بعض مؤلفاته التى قد تكون ملائمة لآبداء آرائه. ففى تراجمه التى جمعها فى كتاب « تراجم مشاهير الشرق » كان ينتهز الفرصة ، فيعلن عن آرائه السياسية ويوضحها ، كما فعل في ترجمته للزعيم مصطفى كامل • وقد كان له فى الثورة العرابية رأى معروف صرح به فى خلال سيرته لمصطفى كامل ، فهو يرى (أن زعماء الجند كان أكثرهم من غير المتعلمين ، فلم يحسنوا التصرف فى تلك الحركة ؛ فبعد أن كانت نهضة وطنية سياسية ، تحولت الى ثورة عسكرية آلت الى الاحتلال الأنجليزى وأمره معلوم • فلما ذهبت دهشة الحرب انتبه عقلاء الأمة فوجدوا أنفسهم قد نجوا من شر ووقعوا فى شرين ، لاعتقادهم أنهم سفكوا دماءهم وبذلوا أموالهم للتخلص من شر الشراكسة ـ وهم يختلفون عنهم جنسا ويشتركون معهم فى الدين ـ فاذا هم قد دخلوا فى سيطرة دولة أجنبية تختلف عنهم جنسا ودينا) (١) •

وقد بلغ من اهتمام زيدان بالسياسة أنه ترجم لبعض رجالها تراجم لا بأس بها فى كتابه « تراجم مشاهير الشرق » ، وجعل فى الكتاب بابا مطولا خاصا برجال الادارة والسياسة ، بجانب رجال الأصلاح ، والأدب ، والشعر فى أبواب أخرى • ولم تخل بعض

---

(١) تراجم مشاهير الشرق ، ج ١ ص ٢١٤ •

الفصول التى كتبها فى « الهلال » من معالجة بعض المسائل السياسية كما تجد فى فصوله عن الحركة الدستورية ، وعن تاريخ الأحزاب السياسية ، وعن الحكومة الدستورية ، وعن الاشتراكية التى يعد من أوائل من كتبوا فيها فى الشرق العربى .

وعلى الرغم من أن جرجى زيدان لم يكن متعاطفا مع سياسة الحزب الوطنى ، ولم يكن من أنصار مصطفى كامل ، فأنه قد رثاه مرثية جليلة مؤثرة بعنوان « مصطفى كامل رجل عظيم » . وبالطبع كانت المرثية فى عدد من أعداد الهلال سنة ١٩٠٨ . وقد فاتت الكياسة واللباقة جرجى زيدان فى هذه المرثية ـ مع أن الرجل كان معروفا بكياسته ـ فانتقد زعيم البلاد وهو لا يزال مسجى فى أكفانه. ولعل مجانبة هذا النقد ومجافاته للذوق والشعور العام ، والخطأ فى توقيته فى أعقاب الوفاة ، كان من المعايب التى لا ينساها الوطنيون لهذا العالم المؤرخ الجليل ...

على أن نقد جرجى زيدان لسياسة مصطفى كامل كان نقدا لتطرفه فى آرائه ، لا نقدا لسلوكه فى خدمة بلاده ، فأن الزعيم كان من هذه الناحية نقى الصفحة ، عفيف النفس ، فلم يتجر بالوطنية ولم يجعلها سببا لكسب مغانم ، بل على الضد من ذلك كانت تضحياته ومغارمه معروفة واضحة للعيان ، والى هذه التضحيات الغالية يشير المرحوم عبد الرحمن الرافعى فى كتابه عن مصطفى كامل بقوله : (لقد ضحى أذن بمنافعه وراحته ومصالحه الشخصية

فى سبيل حياة الجهاد التى اختارهـا لنفسه ، ولم يتحول عنهـا طول حياته ، كما ضحى بمصالح أقرب النـاس اليه ، وأعزهم عليه . ذلك أول مظهر للتضحية فى تاريخه ، وهناك التضحية الكبرى التى تتضاءل بجانبها كل تضحية ، وهى بذله حيـاته وشـبابه فى سـبيل مصر) (١) .

وعلى الجمـلة فقـد خفف من أثر انتقـادات زيدان للزعيم مصطفى كامل حسن نيته وصدق لهجته من ناحية ، وبعده بعدا تاما عن المشاركة فى الأحزاب السياسية المصرية المناوئة لسياسة الحزب الوطنى من ناحية ثانية ، واشادته بعظمـة مصطفى كامل واحيـائه للشعور الوطنى من ناحية ثالثة . وندع هنا جرجى زيدان يتحدث عن مقاييس العظمة وتطبيقها على مصطفى كامل قائلا : (وعندنا أن الرجل العظيم انما يكون عظيما بما يخلفـه من الاعجـاب والأثر الحسن فى نفوس معاصريه . أذ قد يكون عظيما بنفسه ولا يوفق لاتمام عمله ، فيؤسس لمن يأتى بعده . وعلى هذا القياس نعد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده عظيمين ، لأن الأول من مؤسسى النهضة السياسية ، والثانى من مؤسسى النهضة الدينية الاصلاحية.

وعلى هذا القياس أيضا نعد مصطفى كامل عظيما ، لأنه أحيـا فى الأمة المصرية جامعة الوطن ، وهو القائل : لو لم أكن مصريا

---

(١) مصطفى كامل : باعث الحركة الوطنية . ص ٤٣٢ .

لوددت أن أكون مصريا • وعلم المصريين المجاهرة بطلب حقوقهم، وأسمع دول أوربا أصواتهم • فهو من أكبر مؤسسى النهضة السياسية المصرية ولم يأت جمال الدين الأفغانى عملا لا يستطيع مصطفى كامل مثله وأعظم منه لو بلغ الى مثل سنه • ألم يواقف أعظم دول الأرض حتى عرض نفسه للنفى أو الطرد ؟ وقد تفانى فى خدمة مبدئه حتى مات شهيدا فى ريعان شبابه) •

صلاته بالمستشرقين

قد يكون أول تاريخ اتصل فيه جرجي زيدان بواحد من رجال الاستشراق هو سنة ١٨٨١ حيث أدى زيدان امتحانا في علوم الصيدلة أمام لجنة حرة تألفت في بيروت ، وكان من أعضائها الدكتور كرنيلوس فانديك الذي توفي سنة ١٨٩٥ .

وقد يكون زيدان لم يتتلمذ على هذا المستشرق الأمريكي في خلال السنة وبعض السنة التي قضاها طالبا في المدرسة الكلية الأمريكية ببيروت . ولكن الذي لا شك فيه أن زيدان أدى امتحانه في علوم الصيدلة أمام لجنة حرة بعد حادث « الاختلال المشهور » الذي حدث في المدرسة الكلية بسبب الخلاف على تدريس المواد باللغة العربية بدلا من الانجليزية . وكان فانديك واحدا من أعضاء

لجنة الامتحان التى كانت برياسة الكولونيل مراد بك حكيمباشى المعسكر •

وحين توفى فانديك نشر زيدان له ترجمة مطولة فى مجلة الهلال ، ولكن ليس فى هذه الترجمة ما يدل على أن زيدان كان على اتصال قريب بالرجل ، وان كان يذكره فى الترجمة بقوله عنه « أستاذنا » • وهو يذكر هذه الأستاذية فى معرض الاشادة بفضل فانديك حينما أوعز الى الدكتور يعقوب صروف محرر المقتطف أن يترجم كتاب « سر النجاح » الى العربية لما فيه من نماذج للعظماء الذين كونوا أنفسهم ، وشقوا طريقهم ، رغبة فى الاقتداء بهم ، والنسج على منوالهم •

ولا شك أن أبحاث زيدان ودراساته ومقالاته فى الهلال كانت سببا الى عقد الصلات بينه وبين المستشرقين الذين كانوا يقبلون على قراءة مجلات ذلك العهد ، متابعة لسير النهضة العلمية فى الشرق العربى ، فعلى الرغم من استغراقهم فى الكتب والمراجع والدراسات المتخصصة التى كانوا عاكفين عليها ، فانهم كانوا يتابعون المجلات الأدبية العلمية فى ذلك العهد ، ومنها « المقتطف » ليعقوب صروف ، و « المشرق » للأب لويس شيخو اليسوعى ، و « لغة العرب » للأب أنستاس ماري الكرملى ، و «الزهور» لأنطون الجميل ، و «الهلال» لجرجى زيدان •

وحين نشر زيدان فى مجلة الهلال عزمه على أنه بسبيل تأليف كتاب فى تاريخ الحضارة الاسلامية او التمدن الاسلامى ـ وكان ذلك فى سنة ١٩٠١ ـ كتب اليه جماعة من أفاضل المستشرقين ، لم يذكر لنا أسماءهم ، يستكثرون هذا العمل الضخم ، أو ـ كما يقول زيدان نفسه بنص عبارته : (يستغربون اقدامنا على ركوب هذا المركب الخشن) (١) .

ولم يكن استكثار هذا العمل على زيدان تهوينا لأمر الرجل أو استصغارا لهمته ، ولكن الموضوع فى الحق صعب المسالك ، وعر الدروب ، متعدد المصادر ، مبعثر المادة فى كتب ومخطوطات كثيرة متنوعة الموضوعات . فليس من السهل أن ينهض بذلك العبء الا الأشداء ، الذين تسعفهم ذهنيتهم ، وصبرهم ، ومثابرتهم ، ووقتهم ، وصحتهم ، وقرب المراجع من أيديهم على المضى فى العمل وانجازه

وقد خيب زيدان بعزيمته ومثابرته ودأبه الدائم ظن هؤلاء المستغربين ، ولم تصده خشيتهم ومخاوفهم واستغرابهم عن الأقدام على التأليف وجمع المادة العلمية الضخمة لهذا الموضوع الضخم ، بل ـ على الضد من ذلك ـ حفزته الى العمل ، ودفعته الى (بذل جهد المستطاع فى مطالعة ما كتبه العرب فى الأدب والتاريخ

---

(١) تاريخ التمدن الاسلامى ـ مقدمة جرجى زيدان . ص ١٣ من الطبعة الاخيرة .

والسياسة وسائر العلوم فيما وفقنا اليه من الكتب المطبوعة والمخطوطة ..) .

وعلى الرغم من انقطاع زيدان الى البحث فى صومعته بدار الهلال ، أو فى بيته بالفجالة فأنه كان يتلقى رسائل من المستشرقين تأتيه بانتظام ، وتؤكد قيام التبادل العلمى بينه وبينهم ، كما كن يستقبل من وقت لآخر أفرادا من هؤلاء المستشرقين الذين كانوا يفدون الى مصر ، والى القاهرة بالذات ، لأغراض علمية أهمها البحث عن مخطوطات مخبوءة فى مكتبات القاهرة العامة أو الخاصة، أو لنشر المخطوطات التى كانوا يقومون بتحقيقها على مناهجهم ، والتى فتحوا بها بابا جديدا للمحققين من العرب لينشروا التراث العربى على أحدث الوسائل والمناهج المنظمة التى عنى بها هؤلاء المستشرقون .

ويروى لنا المستشرق الروسى الكبير أغناطيوس كراتشكوفسكى فى كتابه المفيد الممتع « مع المخطوطات العربية » الذى نشرته دار التقدم بموسكو من عهد قريب ، كيف التقى بجرجى زيدان فى القاهرة ، وكيف كان حنينه الى وطنه لبنان حين سمع كراتشكوفسكى يتخاطب معه باللهجة السورية ، حتى أخذت الدموع تترقرق من عينيه . وندع كراتشكوفسكى يروى لنا هذه الذكريات الجميلة بعبارته التى ترجمت الى العربية ترجمة لا بأس بها . يقول الرجل: (وهذا هو زيدان الكاتب الروائى ، والمؤرخ والصحفى ؟ كان فى

ذلك الوقت قد وصل الى أوج شهرته ، لكنه مع هذا كان لا ينسى أنه قد أغلق في وجهه طريق العودة الى وطنه • وكانت الدموع تترقرق في عينيه عندما سمعني أتحدث باللهجة السورية ، لهجة وطنه) (١) •

وفى موضع آخر من كتاب كراتشكوفسكى الممتع يصف لنا تعريجه في القاهرة على مكتبة أحمد تيمور باشا التى كان لا يعرفها غير المحبين للكتب من أمثال جرجى زيدان الذى عرف عن طريقه هذه (٢) المكتبة •

ولعل الصلة الوثيقة بين كراتشكوفسكى وجرجى زيدان هى التى دفعت هذا المستشرق الفحل الى كتابة فصل عن زيدان فى المادة الخاصة به فى دائرة المعارف الاسلامية ، وهو فصل يلحظ فيه ذلك العمق ، وتلك الدقة، وذلك التحرى الذى عرفه به كراتشكوفسكى فى كل ما يتناوله من بحوث ودراسات •

ويقرر لنا الدكتور حسين مؤنس فى المقدمة التى كتبها لتاريخ التمدن الاسلامى لجرجى زيدان فى طبعته الأخيرة أن العلاقات اتصلت بين زيدان وبين طائفة من أعلام المستشرقين ، مثل نولدكه ، وفلهاوزن ، ومارجوليوث ، وجولدتسيهر ، وأمدروز ، وسخاو ،

---

(١) مع المخطوطات العربية ــ ص ٤٥ .

(٢) المصدر نفسه . ٥٥ .

ووليام رايت ، وماكدونالد • ولا ندرى لماذا أغفل العلاقة بينه وبين كراتشكوفسكى ؟

واذا كان زيدان قد اتصل ببعض رجال الاستشراق المعاصرين له اتصال مراسلة ، أو لقاء شخصى ، فأن صلاته الفكرية بالمتوفين من المستشرقين تؤكدها تلك المصادر الأوربية التى أخذ عنها ، والتى كان يشير اليها دائما ويذكرها فى مؤلفاته ، حتى فى رواياته التاريخية •

ولقد كان المستشرقون الوافدون الى مصر يجعلون زيارة « مجلة الهلال » وزيارة صاحبها جرجى زيدان هدفا من أهدافهم، ويضعونها فى تخطيط برامجهم للرحلة • ولقد روت مجلة الهلال فى عدد أكتوبر سنة ١٩١٤ ، وهو أول عدد من المجلة صدر عقب وفاة زيدان ، أن مستشرقا جاءه مرة لزيارته لأول مرة ، فلما رآه سأله : أأنت زيدان ؟ قال : نعم ! فقال : ما أبعد صورة شخصك المرسومة فى مخيلتى عن شخصك الحقيقى ! فانى كنت أنتظر أن أرى رجلا شيخاً ، ذا لحية بيضاء ! لأن من يطلع على مؤلفاتك لا يقدر عمرك بأقل من ثمانين عاما !

وهكذا تؤكد مؤلفات زيدان الضخمة أنها كانت تقتضى من العمر ضعف الذى عاشه ذلك العالم الدءوب ، بشهادة المستشرق اللبيب •••

نزعة شعبية غير أرستقراطية

يلاحظ الذين يقرءون مؤلفات جرجى زيدان تلك الروح الشعبية الظاهرة فيها على الرغم من كونها دراسات متخصصة فى موضوعات لا تهم الجماهير مثل ما تهم أهل الاختصاص . وتظهر هذه الروح الشعبية واضحة متميزة فى رواياته التاريخية ، التى قصد من ورائها أن يوسع قاعدة القراءة بين الجماهير على أوسع نطاق . كما تظهر هذه النزعة الشعبية فى مجلة الهلال التى أنشأها زيدان سنة ١٨٩٢ لعلها تكون شقيقة لمجلة المقتطف التى كان عليها طابع متخصص أعمق من طابع الهلال . ومن هنا جاءت شهادة الأدباء والقراء بأن الهلال كانت أخف المجلات العربية ظلا . وخفة الظل هنا تأتى من ناحية الصبغة الشعبية التعليمية التى كانت تجعل مجلة المقتطف وقفا على طبقة معينة من القراء هم طبقة المثقفين أصحاب

الثقافة الرصينة المتخصصة • أما الهلال فكانت مجلة سهلة التناول يقرؤها عدد أكبر من قراء غيرها ، وذلك لبساطتها وسهولة تناولها ، تلك البساطة التي كانت مزية الهلال من دون المجلات المعاصرة له جميعا ، والتي يقول عنها الدكتور محمد حسين هيكل : (وكانت ميزة الهلال في عهد منشئه البساطة في عرض المسائل الأدبية والاجتماعية والتاريخية بساطة تقربها الى الذهن ، أوتحببها الى النفس) (١)

ولم تفت هذه النزعة بعض الذين ترجموا لزيدان أو ألموا بطرف من حياته ، فالمستشرق كراتشكوفسكي يذكر أن زيدان كان يكتب في كل عام رواية جديدة ، ويصدر مجلدا ذا صبغة تعليمية شعبية •

وقد حرص جرجي زيدان دائما على أن تكون كتبه وكتاباته في متناول فهم العامة ، وأن يرضى عنها الخاصة ؛ فهو يؤلف في تآليفه بين هدفين قد يكونان متباعدين • ومن هنا نزع الى الكتابة بأسلوب لا يعز فهمه ولا مناله على العامة من القراء • ويبدي زيدان دائما حرصه على هذه النزعة الشعبية في كتبه • ففي مقدمة كتابه « تاريخ مصر الحديث » يقرر أنه لم ير بين المؤرخين الذين كتبوا في التاريخ المصري من اعتنى بوضع تاريخ مستوف لمصر (على أسلوب قريب من فهم العامة ، ورضى الخاصة) •

---

(١) الكتاب الذهبي للهلال .

ولم يكن زيدان بحاجة الى أن يقرر فى مقدمات كتبه أو فى أى موضع منها أنه يهدف الى تعميم تناول العلم وتيسيره بين طبقات الناس • فأن تناوله للموضوعات وطرق معالجتها بهذه الوسيلة التى اتخذها يكشف لنا عن غرضه دون حاجة الى أن يعلن هو عن هدفه• وقد فطن الى هذا بعض ناقديه ومترجميه • فنرى الدكتور محمد حسين هيكل فى سنة ١٩١٢ وقبل وفاة زيدان بعامين يكتب مقالا فى نقد كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » يكشف فيه عن هذه النزعة الشعبية لنشر المعرفة على أوسع نطاق عند جرجى زيدان ، فيقول : (كتب جرجى أفندى زيدان أكثر من خمسة وعشرين كتابا فى التاريخ كما قدمناه، ويظهر حين قراءتها، ان غرض المؤلف منها نشر التاريخ وتعميمه ليعرف الناس الحوادث التى وقعت فى الماضى ، ولتكون عندهم فكرة عامة عن العالم بأسره ، أو عن أمة بعينها • أريد أن أقول ان جرجى افندى زيدان لا يقصد من مؤلفاته التاريخية الى تأييد فكرة له فى طريق سير العالم ، كما يفعل بعض الفلاسفة من كتاب التاريخ ، ولكنه يريد نشر المعرفة ، وذلك ما يسميه الأفرنج Vulgarisation (١)

ولا شك أن هذه النزعة التعليمية الشعبية فى تعميم المعارف الأدبية والحضارية والتاريخية هى التى حدت زيدان الى أن ينهج طريق التبسيط والوضوح فى أسلوبه • فهو يكتب للناس بلغتهم

(١) في أوقات الفراغ . ص ٢١٦ .

التى يتبادلونها فى صحافتهم ورسائلهم ، لا بتلك اللغة المتحذلقة المتأنقة التى قد يغلفها الغموض طارئا كان أم مقصودا .

ومن هذا المنطلق أخذ جرجى زيدان يصدر مؤلفاته ويهيىء بها أذهان القراء (على اختلاف طبقاتهم، وتفاوت معارفهم ومداركهم لمطالعة هذا التاريخ ـ يعنى تاريخ الاسلام ـ بما ننشره من الروايات التاريخية الاسلامية تباعا فى « الهلال ») .

والذى يريد أن يتحدث عن النزعة التعليمية الشعبية عند جرجى زيدان لا يجد مفرا من الاستشهاد ، برواياته التاريخية ، فقد احتال بها على نشر التاريخ حتى يساغ مناله عن طريق القصة. ويعترف زيدان نفسه بهذا « الاحتيال » الذى لجأ اليه ليحقق هدفه التعليمى ، فيقول لنا فى مقدمة « تاريخ التمدن الاسلامى » ان (مطالعة التاريخ الصرف تثقل على جمهور القراء ، وخصوصا فى بلادنا ، والعلم عندنا لا يزال فى دور الطفولة ، فلا بد لنا من الاحتيال فى نشر العلم بيننا بما يرغب الناس فى القراءة ، والرواية أفضل وسيلة لهذه الغاية) .

ومع هذه النزعة التعليمية الشعبية التى كانت هدف زيدان فيما يكتبه ، فان المعارف والمادة العلمية التى كان يقدمها فى مؤلفاته وكتاباته لم تبتذل ولم تمتهن بهذا التيسير والتقريب ، بل ظل لهما مقامها المحمود . فالتيسير والتقريب شىء ، والابتذال والامتهان شىء

آخر • وقد ظلت مادة زيدان العلمية محترمة موقرة على الرغم من تداولها بين أيد كثيرة • وكذلك كان شأن صاحبنا فى تحرير «الهلال» وتوجيه موضوعاته ، وجمع مادته الطريفة ، فانه كان (ييسر المعارف ولا يبتذلها) كما قال عنه الأستاذ عباس محمود العقاد •

وحين رأى زيدان أن تقريب المادة العلمية الى الأفهام لا تساعد عليه اللغة الجافية ، ولا الألفاظ الغريبة ، ولا التقعر والتوعر فى الأساليب ، فانه ارتضى لنفسه أسلوبا سهلا بسيطا ، وألفاظا مألوفة ميسرة متداولة ، لتعينه على تحقيق غرضه من شعبية العلم التى يريدها • وقد آمن زيدان بهذه النزعة ، وظل مخلصا لها طول حياته •

ولقد كان زيدان نزاعا الى فتح المدارس فى مصر التى اتخذها له وطنا ثانيا ، وكثيرا ما انتقد ضعف التعليم عندنا ، وقلة المدارس ، وتقاعد الحكومة والأغنياء عن اتخاذ خطوة فعالة فى هذا السبيل • وقد حز فى نفسه ـ وهو فى أثناء رحلته الى أوربا سنة ١٩١٢ ـ أن يوازن بين حالة المدارس عندنا وعند القوم هناك • وقد أشعرته قراءاته ورحلاته ومعرفته المتجددة عن الغربيين أننا متخلفون عنهم فى التعليم والمدارس • ومن هنا أراد بانشاء «الهلال» أن يجعل منه مدرسة تثقف وتعلم ، لمن فاتهم فى المدارس التثقيف والتعليم • فالهلال كان مدرسة واسعة الأبواب يدخل منها طلاب المادة العلمية الميسرة بلا عناء ، وهو تحقيق لفكرة «الشعبية» فى العلم عند زيدان•

وهذه النزعة الشعبية عند زيدان يصفها الدكتور طه حسين بقوله : (وجرجى زيدان لم يكن أرستقرطى الأدب ، وانما كان رجلا يجمع بين نزعتين مختلفتين أشد الاختلاف ، ولكنهما نافعتان أشد النفع : احداهما النزعة العلمية التى تظهر فيما كتب من التاريخ الأدبى والسياسى ومن تاريخ الحضارة ، والثانية النزعة الشعبية التى تظهر فى هذه الكتب التاريخيـة نفسـها ، وتظهر بنوع خاص فى قصصه وفصوله الثقافية العامة) (١) .

بقى أن نقـول ان هذه النزعة الشـعبية فى كتـابات زيدان ومؤلفاته كانت انعكاسـا للظروف الأولى التى أحاطت بالرجل فى نشأته وتعليمه الأول . فقد شاهد هو بنفسه وهو صبى طموح كيف تقف (المادة) فى سبيل حصوله على كتاب يقرؤه ، وكابد هو بنفسه مشقات التعليم فى مدارس متواضعة فى بيروت ، ورأى هو بعينـه كيف كانت الظروف فى لبنان ومصر والشرق العـربى تحول بين الجماهير وبين العلم الضرورى لهم ..

وحين قدم زيدان العلم لقرائه من العرب ميسرا مبسطا ، فأنه أعطاهم من سماحة نفسه ما يتلاءم مع نبل غرضه ، فلم يكن رجلا جافيا ولا متعاليا ولا أرستقراطيا ، ولكنه كان دائما رجل الثقـافة الجماهيرية المتواضع .

---

(١) من أعلام الفكر والادب ص ٨٧ .

باقة من الأخلاق

حينما رثى خليل مطران صديقه جرجى زيدان بمرثيته الرصينة التى ألقيت فى حفل تأبينه ، رسم له صورة شعرية صادقة لأخلاقه ، كأنما أراد أن يصنع لهذه الباقة الكريمة من الأخلاق لوحة زاهية من أصدق الشعر الوصفى وأعذبه • وفى هذه اللوحة نلمح مجموعة من أخلاق زيدان جلاها خليل مطران فى أبهى معارضها • ولا بأس هنا من ايراد أبيات هذه اللوحة فهى أكثر ملاءمة للذكر فى هذا المكان • يقول خليل مطران :

ألا فى سبيل الله حمكتك التى
جلاها « هلال » مالىء الكون مقمر

وجد به رضت الصعاب فما كبا
الى أن دهاه جدك المتعثر

وآداب نفس لو توزع حسنها

عـراء لأضحى وهو كالروض مزهر

وأخلاق احسان وعفو ورقة

روائع يخفيها اتضاع وتظهر

وقبل هذه اللوحة الملمومة في مكان واحد من قصيدة خليل مطران ، نرى في منتصف المرثية لوحة أو لمحة أخرى في وصف أخلاق زيدان يقول فيها مطران :

وكان أبر الناس بالأهل والحمى

وبالقوم لا يجفو ولا يتغير

ونعم الأخ الوافى اذا ما تنكرت

لصاحبه الأيام لا يتنكر

وفى هاتين اللوحتين المطرانيتين جماع من الأخلاق التى عرفت عن جرجى زيدان ، واشتهر بها بين الناس فى عصره . على أن خليل مطران لم يحط بأخلاق صاحبنا من جميع أطرافها ، ولم يذكر له ألا ما بدا له منه من خبرة وقرب . فان هناك أخلاقا أخرى تضاف الى لوحة خليل مطران فتكمل الصورة العامة التى نريد أن نرسمها فى هذا الفصل .

ولكن لوحة مطران الشعرية فى وصف أخلاق جرجى زيدان لم تشهد لها مثيلا فى بقية المراثى الشعرية التى نظمها أحمد شوقى ،

وحافظ ابراهيم ، وولى الدين يكن ، وحفنى ناصف . فهى لوحة متكاملة على حين لم تنصب اهتمامات شوقى فى مرثيته الا على دولة البيان ، والهلال ، وتاريخ الأسلام ، وروايات زيدان التاريخية ، كما أن مرثيــة ولى الدين تناولت مآثر الرجـل فى ميدان العلم والأدب والتاريخ والرواية ولم تتعرض لناحية واحدة من أخلاقه . أما حافظ ابراهيم فقد جعل بين الفجيعة فى الشيخ ابراهيم اليازجى وجرجى زيدان مجالا للاعتذار من عدم مشاركته فى رثاء اليازجى يوم وفاته سنة ١٩٠٨ ؛ فجدد الحزن عليه فى وفاة زيدان سنة ١٩١٤ !

وتبدو لنا أخلاق زيدان من خلال مرآتين : مرآة الذين كتبوا عنه وعايشوه وعرفوه ووصفوه عن تجربة قريبة ، ومرآة سلوكه هو وتصرفاته القـولية وردوده التى كانت تنم على أخـلاقه بصـورة واضحة .

لقد كان زيدان كثير الأنصاف للناس عامة ، وأهل الفضـل خاصـة . وقد سرت فى أيامه موجـة من التهـوين من أعمـــال المستشرقين والتصغير من شأنهم ومن الدور الذى يقومون به لخدمة الشرق وتاريخ العـرب وحضـارتهم وآدابهم . وقد يكون عنـد المستشرقين نوع من التعصب أو الغمز على العرب والاسلام ، ولكن مناهجهم فى خدمة الفكر العربى ، والتراث العربى ، وتنظيم الأبحاث الخاصة بالعرب والأسلام لا ينكرها منصف . وحين أحس جرجى زيدان من الأستاذ الشيخ أحمد الأسـكندرى أنه يقلل من شـأن

المستشرقين رد عليه زيدان يؤكد أنهم أصحاب الفضل الأول على الآداب العربية فى العصر الحديث (لأنهم أول من وجه الأنظار الى الاهتمام بها ، وقد حفظوا آثارها فى خزائنهم ، أو نشروها فى مطابعهم ، قبل أن تظهر المطابع فى الشرق .. وهم قدوتنا فى البحث والتنقيب . وهذا لا يمنع أنهم يخطئون مثل سائر البشر ..) (١)

وكان زيدان يحترم المحدثين من رجال الأدب والعلم ، ويرى أن التقدير لهؤلاء المحدثين لا يجوز بحال أن يقل عن التقدير للقدماء . والعبرة هنا بصواب الحكم ، لا بقدم العهد وحداثته . وهذه ناحية من الأنصاف تضاف الى سابقتها .

ولقد لقى زيدان ولقى « هلاله » ولقيت مؤلفاته ودراساته من النجاح والقبول ما لم يحظ به ألا قلة قليلة من الناس فى عصره ، ولكنه مع هذا ظل متواضعا بعيدا عن الزهو والتفاخر ، وتوهم أنه صنع شيئا لم يصنعه غيره . وحين اضطر فى أحد ردوده على ناقديه الى ذكر الطبعات التى حظيت بها بعض كتبه واللغات التى ترجمت اليها أشار الى أنه كان مكرها على ذلك (فاننا من أبعد الناس عن التنويه بأعمالنا) (٢) .

وقد جمع صاحب « مرآة العصر » مجموعة من أخلاق جرجى زيدان فى سطرين اثنين يقول فيهما : (أما أخلاق صاحب الترجمة

(١) تاريخ آداب اللغة العربية . جـ ٣ ص ٧
(٢) المصدر نفسه ص ٦ .

فسلامة الذوق ، وصدق اللهجة ، وهو مشهور بدماثة الأخلاق ، ولطف المحاضرة ، معروف بالثبات والمواظبة على العمل) (١) •

والثبات والصبر على العمل من أهم ما يلفت النظر فى أخلاق زيدان ، وهل كانت مجلة الهلال ، وكتبه العظيمه فى الادب العربى والتمدن الأسلامى ألا ثمرة من ثمار الصبر والمواظبة على العمل بلا توقف أو ملل ؟ وهل كان النجاح الذى لقيه زيدان بعد الظروف العصيبة التى مرت به فى طفولته وشبابه الا نتيجة حتمية لهذا الصبر الطويل على الأعمال ؟ وبلغ من حرص زيدان على العمل وعدم تضييع لحظة من الوقت سدى أنه كان يتشاغل فى خلال مطالعاته وهو شاب مقبل على الحياة بالرسم والتصوير على بعض صفحات مايقرؤه• فلم يرض أن يضيع ساعة الراحة من تعب المطالعة بلا عمل ينجزه (٢) •

والعمل الدائم بلا ضجر ولا ملل هو نتيجة لذلك الصبر الجميل الذى تدرع به منذ أن واجه شظف العيش ومشقات الحياة وهو صبى (فلم يكن أمامه فى ظلام الحياة ، ومحاربة الأيام غير الصبر والأمل •••) (٣) •

وقد شهد له المستشرق كراتشكوفسكى بأنه « كان ذا خلق

---

(١) مرآة العصر • ص ٤٦٤ •

(٢) المصدر نفسه ص ٤٥٨ •

(٣) عصاميون عظماء من الشرق والغرب ١٠ ص ٦٥ •

نبيل رفيع » • وقد تكون شهادة كراتشكوفسكى اه مستنبطة من موقف زيدان الهادىء الرزين العفيف من حساده وناقديه ، فقد كانت ردوده عليهم وعلى مهاجمتهم ـ وأحيانا مهاتراتهم ـ متسمة بالأدب وسعة الصدر وعفة اللسان والحلم الجميل • ولكن كراتشكوفسكى اتصل بالرجل عن قرب ، ودامت المراسلات بينهما زمنا طويلا ، وكان زيدان أحد الأدلاء الأوفياء الذين صحبوا كراتشكوفسكى فى خلال زيارته للقاهرة •

وعلى كثرة ما قرأ جرجى زيدان من الكتب الأجنبية فى وقته فى مسائل الفلسفة والأديان فانه ظل محافظا على روح التدين والاعتصام بالدين ، ومجانبة الآراء المتطرفة التى كان يجاهر بها واحد من المفكرين المسيحيين العرب مثل الدكتور شبلى شميل ، كانكار الحكمة من العالم المادى ، والشك فى وجود حياة أخرى بعد أن تتخلص الروح من الجسد بالموت • ولعل مناقشة دارت فى مجلة الهلال فى سنتها السابعة عشرة تكشف لنا عن تدين هذا الرجل وبعده عن القضايا الشائكة التى لا يرجع الباحث فيها باطمئنان ولا عرفان • فقد وجه أحد القراء فى مجلة الهلال سؤالا الى جرجى زيدان يقول فيه : هل فى الوجود عالم آخر ؟ فرد عليه زيدان ردا علميا مقنعا ختمه بقوله : (فوجود العالم الآخر لا ينافى نظام هذا العالم ـ يعنى عالمنا المادى الذى نعيش فيه ـ بل هو متمم له كما تقدم) • فما كان من الدكتور شبلى شميل الا أن تدخل فى

الموضوع فأنكر الحكمة فى العالم المادى بحجة وجود زوائد فيه خالية من المعنى والغرض ، كالبرغش الذى أرقه وكالأعضاء الأثرية فى الحيوانات التى لم يكن لها معنى، لولا انها كانت من قبل ذات نفع، ولكنها ضمرت بالأهمال وعدم الاستعمال • وقد نظم شميل فى «البرغش» الذى أرقه أبياتا ينكر فيها الحكمة فى وجود هذا المخلوق الحقير المزعج، وقد انتشرت الأبيات ـ على الرغم مما فيها من التطرف فى الاعتقاد ـ وتداولها الرواة فى ذلك الزمان !

ولعل أخلاق زيدان مع أصحابه ، من الوفاء لهم ، وكثرة تحمله لما قد يبدو من هفوات فيهم ، والانة الجانب لهم هو الذى أراد أن يسجله « سليم سركيس » من كلمته فى تأبين جرجى زيدان، فقد ذكر البيت الذى غناه « مخارق » لهرون الرشيد ، وهو :

وأنى لمحتاج الى ظل صاحب

يرق ويصفو ان كدرت عليه

فقال الرشيد لمطربه ومنشده : يا مخارق ! جئنى بهذا الصاحب ولك نصف الخلافة ! وبالطبع لم يجئه مخارق بمثل هذا الصاحب النادر ندرة الكبريت الأحمر فضاعت منه العطية التى وعد بها الرشيد ؛ ولكن سليم سركيس كان ضامنا أنه لو كان معاصرا للرشيد لكان ضامنا لنصف الخلافة اذ يقدم اليه جرجى زيدان ، لأنه كان ضالة أمير المؤمنين ••! (١) •

---

(١) الكتاب الذهبى . ومجلة الهلال • عدد نوفمبر سنة ١٩١٤ •

وقد أكمل لنا خليل مطران الصورة الشعرية لأخلاق جرجى زيدان فى مرثيته الرائية له ، بصورة أخرى نثرية بليغة على إيجازها، يصف فيها جمع الرجل بين التواضع والكبر ، وهو كبر يبلغ أقصى غاية المحامد والفضائل ، لأنه كبر وترفع عما فى أيدى الناس، وكبر واستعلاء عن أن يرخص كرامته ويذل رجولته بالشكوى لأنسان. ونترك خليل مطران لعبارته التى يقول فيها عن زيدان : (لم أشهد ولم أسمع عنه أنه شكا دنياه بمحضر من أحد ، ولا أنه تمنى على أحد شيئا بأشارة أو مصارحة . كما أننى لم أجده مرة مستفزا للأخذ بثأره من متهجم عليه فى الصناعة التى هى مدار رزقه ، ومحور شهرته ، لاعتقاده شرف غايته) .

زيدان الأب

ان علاقة جرجى زيدان الطيبة مع كل من اتصل بهم واتصلوا به تؤكد لنا جوانب خلقية كريمة من هـذا الرجل الذى لا نذكر أننا عثرنا له على كلمة جارحة ، أو عبـارة نابية مع أشـد ناقديه والمتهجمين عليـه فى معـارك النقد الطويلة التى واجهها بشجـاعة وسماحة نفس ، وسعة صدر الى ما قبل وفاته بقليل .

واذا كان زيدان فى أخـلاقه وصـلاته مع الأصـدقاء مثال الصديق المخلص ، والأنسان المتسامح الذى كان يفتش عنه الخليفة العباسى هارون الرشيد ، ووهب نصف ملكه لمن يجده حين سمع قول المنشد :

وأنى لمحتـــاج الى ظل صـاحب

يرق ويصـفو ان كدرت عليه !

اذا كان زيدان هكذا مع أصحابه ومع الأجانب ، فأنه أولى أن يكون مع أبنائه مثال الأب الرحيم الكريم الذى تتجلى الأبوة الحانية في سلوكه مع أبنائه ، وفى مخاطبتهم وفى مراسلاته اليهم حين تفرق الأيام بينهم قليلا أو كثيرا •

وجرجى زيدان واحد من الآباء فى الأدب العربى الذين بعثوا الى أبنائهم برسائل تفيض بالحب والنصح والتوجيه حين قضت ظروف معينة أن تبعد الأبناء عن الآباء ، كظروف الاشتغال بالعلم ، والاضطرار الى مفارقة الأهل •

ولم يخل الأدب العربى فى تاريخه الطويل قديما وحديثا من أمثال هذه الرسائل الأبوية التى حفظها لنا التاريخ، وروتها كتب الأخبار والأدب والسير وما أليها ، كرسائل الخليفة عمر بن الخطاب الى ابنه عبد الله الذى خرج فى غربة قصيرة، ورسائل المهلب بن أبى صفرة الى أبنائه ينصحهم ويوصيهم ، ورسائل عبد الملك بن صالح ابن على العباسى الى ولده • ورسائل موسى بن سعيد المغربى الى ولده على صاحب كتاب « المغرب فى حلى المغرب » ينصحه بالسلوك فى الغربة ، وقد اشتملت رسائل ابن سعيد هذا على القصيدة الكافية المشهورة التى يقول فيها الأب مخاطبا ابنه :

أودعك الرحمن فى غربتك

مرتقبا رحماه فى أوبتك

وما اختيـارى كان طوع النـــوى

لكننى أجـرى على بغيتـــك

فلا تطل حبـــل النوى اننى

والله أشـــتاق الى طلعتـك

واختصر التـوديع أخـذا فما

لى ناظر يقـوى على فرقتك

واجعـل وصـــاتى نصب عين ، ولا

تبـرح مدى الأيـام من فـكرتك

على أن الأدب الحديث والمعاصر قد حفل بطائفـة من الرسائل بعثها بعض الآباء الى أبنائهم النـازحين فى طلب العلم ، يدبرون لهم بالنصح طرق السلوك فى مغتربهم ، ويرسمون لهم على البعد خطط التكيف مع وسطهم الجديد . ومن هذه الرسائل ما كتبه أحمد حافظ عوض الى ولده « جلال » فى كتاب عنوانه « من والد الى ولده » ، وما كتبه المرحوم أحمد أمين الى ولده ، وقد نشرت فى كتاب عنوانه « الى ولدى » ، وما كتبه الدكتور محمد حسـين هيكل الى ولده ، وما كتبه خليل السـكاكينى الأديب الفلسطينى الأنسـان الى ولده «سرى» ، وما بعث به أسماعيل مظهر صـاحب مجلة العصـور الى ولده جلال ، وما بعث به بولس سلامة الباحث الشاعر اللبنانى الى حفيده فادى ، وما أرسله فاضل الجمالى السياسى العراقى المعروف الى ولده عباس ، وما بعث به شكرى شعشاعة الأديب الأردنى الى

ولده نزار الذى كان يطلب العلم فى الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٩٥٢ ، وما أرسله الأستاذ يعقوب العودات « البدوى الملثم » الأديب الباحث الأردنى الى ولده خالد حين بعث به الى بيروت سنة ١٩٦٨ يطلب العلم فى الجامعة الأمريكية ، وقد نشرت نماذج من هذه الرسائل الأبوية فى مجلة « الأديب » .

ومن حسن الحظ أن جرجى زيدان قد انضم الى هذا السلك الكريم من الآباء الذين بعثوا برسائل الى أبنائهم . ففى سنة ١٩٠٨ أرسل الرجل ولده « اميل » الى بيروت ليتعلم فى الجامعة الأمريكية، وكان الاتفاق أن يبعث الابن الى أبيه كل أسبوع رسالتين حتى يطمئن قلب الأسرة على ولدها ، ويظهر أن الابن استكثر أن يكتب الى أبيه مرتين كل أسبوع ، وقد تكون مشاغل الدرس والتحصيل قد عاقته من أن يجرى فى تنظيم مواعيد الرسائل على رغبة أبيه ، فبعث اليه أبوه برسالة تفيض بالحب ، وتمتلىء بالنصائح والتوجيهات التى لم يجد الأب بدا من توجيهها الى ابن له حديث عهد بالغربة والبعد عن أحضان الأسرة ، يستقبل أصدقاء وزملاء جددا ، ويستقبل حياة جامعية جديدة لم يكن له بها عهد من قبل . وقد حرص الوالد فى رسالته على أن تكون العلاقة بينه وبين ولده علاقة صديق يفضى الى صديقه بذات نفسه ، ودخيلة أمره ، لا علاقة ابن يخشى أباه ويهاب أن يبوح له ببعض خصوصيات أمره . كما حرص أن يوصيه بسعة صدره للحياة ، فلا يضيق صدرا بما قد

يصادفه من أمور لم يألفها فى ذلك الجو الجديد ، وأرشده الى أن التكيف بالوسط دليل على حيوية الأنسان ومرونته وعقله ، وكأنه كان بهذا يشير ـ مسبقا ـ الى قول شوقى بعد ذلك ببضعة عشر عاما فى رثاء مصطفى لطفى المنفلوطى :

من ضاق بالدنيا فليس حكيمها
ان الحكيم بها رحيب الباع

وتلمح فى رسائل زيدان الى ولده أنه يحاول أن يعوض أبناءه ما فاته هو شخصيا من النصح والتوجيه فى نشأته ، فلقد أتيحت لولده « أميل » من فرص المعاونة والتشجيع والتوجيه ومياسرة الحياة لا معاسرتها ما لم يتح للأب الذى عرفنا طرفا من مكابداته فى الحياة فى مطعم أبيه • ويظهر أن هذه المكابدات والحياة القاسية الشديدة التى عاشها جرجى زيدان أيام طفولته وصباه وفتائه فى بيروت لم تبرح ذاكرته ، فهو لا يزال يذكرها جيدا ، وهو لا يزال يشير اليها فى كياسة الى أبنائه حتى يتخذ لهم منها سببا الى العمل وعدم الكسل فى ظل مياسرات الحياة التى هيئت لهم بعد كفاح والدهم الطويل •

وكثيرا ما كان يسمع أبناء جرجى زيدان الثناء على والدهم ، والأشادة بذكره فى مجالسهم مع أصدقائهم وزملائهم ، وكان الأبناء ـ بالطبع ـ يسرون لهذا المديح الذى يسمعونه بآذانهم فى والدهم، وقد سمع ولده « أميل » شيئا من هذا فى مجلس له ببيروت فبعث

الى والده يخبره بما سمعه من ثناء عليه • وبالطبع لم يسكت الاب على هذا الخبر السار يسوقه له ولده ، ولكنه يرد عليه بما يؤكد له أنه لم يستحق مثل هذا المدح الا بعد أن أضناه العمل والتعب والكفاح ؛ فأن الثناء لا يأتى للناس ألا بعد أن يبذلوا له ما يليق به من الأثمان •

ولعل رسالة واحدة فى هذا المقام نعرضها هنا تصور لنا فنا كاملا من أدب الرسائل الأبوية عند جرجى زيدان ، وتعرض لنا نفسية الرجل وعلاقته بأبنائه • ولن نجد أصدق من رسالة زيدان الى ابنه « أميل » حين كان يتلقى العلم فى جامعة بيروت الأمريكية سنة ١٩٠٨ • قال الأب المثالى فى رسالته : (••• كتبت اليك أول أمس ، وأثبت لك ما كان لكتابك الأول من التأثير فىَّ • وقد كنت أنتظر ذلك ، قياسا على ما شعرت به أنا من الوحشة حين فارقت أهلى منذ خمسة وعشرين عاما • وأرجو أن يأتينى كتابك الثانى وفيه ما يطمئن القلب • وهذا عهدى بك ، وأنت عاقل ، أن توفق بين نفسك وبين ما يحيط بك من الأحوال • فلا تطلب أن تتغير تلك الأحوال حتى توافق مرادك ، فاذا لم يتم لك ذلك شقيت •• ذلك هو الفرق بين واسعى الصدر وضيقى الخلق • فواسع الصدر يطبق نفسه وأحواله على البيئة والظروف التى تحيط به ، وهذا يدل على عقل كبير • وأما الذى ينتقد كل ما يحيط به ، فلا يعجبه شىء من الأمور التى تتعلق به ، ولا يعجبه ما يقول الناس عنه ، ولا مايريدونه منه ، ولا يعجبه معاملة الناس له الا كما يريد ، فهذا أتعس شقى •

••• لا تزال – على ما يظهر – تستعظم الكتابة الى مرتين فى الأسبوع ، وأنا لو وجدت كل يوم بريدا لكتبت كل يوم ؛ فافعل أنت كذلك ، وأطـل كتبك ما اســتطعت ، واشرح لى ما تراه أو ما يخطر لك ، من أى وجه ، وفى كل حال • واعلم أنك تكتب الى صديق يحبك ، ويغار على مصلحتك ، لا الى والد يلتمس أن تهابه وتخفى عنه شيئا من أمورك • ولا أظنك تجهل أنى منذ سنتين أو أكثر صرت أعاملك معاملة الصديق لصديقه ••• وفى سنك كنت جبانا ، ولكننى لم أكن أجد من يشجعنى ، ولا من يشير على ، أو ينبهنى الى نقص فى • ولو وجد فوق رأسى – وأنا فى مثل عمرك – من ينبهنى الى نقـائصى ، لوفرت على نفسى تعب سـنين ، وتعجلت النجاح أعواما • فاستفد أنت من هذه الفرصة •

ان العمل فى هذه الدنيا يحتاج الى جرأة واقدام ، كما يحتاج الى الثبات والصبر ، وكما يحتاج الى التعقل والصدق •

••• لا ينبغى أن يطول الوقت قبل أن تتعود المدرسة ، وأكلها ، وتلامذتها ؛ فان الرجل الحقيقى قوى الأرادة من يطبق نفسه على الوسط الذى يوجد فيه • ان ذلك دليل على القـــوة والحيوية فى الأنسان ، وأشبه شىء بالمرونة فى الجمـاد ***Elasticity*** فالمرونة فى الأجسام الحية تقوى فى الشبان ومن فى معناهم من الأقوياء • وأريد بالمرونة مرونة البدن والعقل • فالشاب اذا قرصته فى عضده مثلا ، فحالما تترك العضد يعود اللحم الى ما كان عليه ، وأما الشيخ

فاذا قرصته يطول زمن عوده الى أصله . واللحم الميت لا يعود اذ لا مرونة فيه . واعتبر ذلك في العقول ؛ فصاحب العقل الكبير يهون عليه تطبيق تصوراته وأحكامه على جليسه أو عشيره ، ولو كان في الحقيقة بعيدا عن طبعه أو عاداته . وهذا هو الفرق بين الناس في ارضاء الناس أو عدم ارضائهم . فالذين يرضونهم هم أصحاب المرونة العقلية ، الذين يستطيعون تكييف تصوراتهم وأحكامهم ؛ حتى يفهموا جليسهم ويفهموه ، وهو ما يعبر عنه بقولهم Commonsense فكن أنت كذلك تكسب ثناء القوم وقلوب عشرائك. وكن ــ مع ذلك ــ محافظا على مبادئك ، فأن المروءة حسنة وممدوحة في التصورات والأحكام ، ولكنها مكروهة وسيئة في الآداب والأخلاق ، فهذه لا بد من المحافظة عليها ، والثبوت فيها ثبوت الجمال .

يسرني سرورك لسماع اسم والدك في معرض المدح ، وهذا طبيعي ... ونحن يا حبيبي لم نستحق مثل هذه الكلمة تقال على هذه الصورة ، الا بعد أن أذبنا الدماغ ، وأنهكنا القوى ، في السهر والاجهاد . لأن العصر الذي نشأنا فيه غير الذي أنت فيه . فانه أسهل عليك كثيرا أن تنال مثل هذا المقام وأرفع منه ، بتعب أقل ووقت أقصر ...

وأما أقصى مرادي ومتمناي فهو أن تبقى متمتعا بالصحة والعافية ، وأن يكون اسمك مصونا ، وسمعتك شريفة ، وأن تكون

قريبا من قلوب الناس بحسن أخلاقك) (١) • ولقد استجاب الابن « أميل زيدان » الى نصائح أبيه ، وفتح لها سمعه وقلبه • ويحدثنا هذا الابن عن أبيه عقب وفاته سنة ١٩١٤ قائلا : (لم أستحى قط أن أفتح له صدرى فى ساعة الضيق ، وأشكو له متاعبى) (٢) • وهذا الانفتاح من جانب الابن هو نتيجة لمناشدة الأب لابنه أن تكون العلاقة بينهما علاقة صديق يفضى ، لا علاقة ابن يخشى ويكتم •••

واذا كان الأب جرجى زيدان يعامل ابنه معاملة الصديق يشجعه على ذلك ، فانه في الوقت نفسه كان يعامله معاملة الرجال ، وهى نتيجة حتمية لمعاملة الصداقة • ومعنى هذا أنه كان يربى فيه الاعتماد على النفس ، والشعور بالذات ، لا تربية والد يريد أن يجعل من ولده دائما طفلا يعتمد عليه • وكما كان جرجى زيدان حسن الأصغاء ، حسن التقبل لحديث الناس وآرائهم ـ ولو كانت ضده وفى غير مصلحته ـ فانه كان كذلك حسن الأصغاء لحديث أولاده ، حتى ولو لم يكن فيه من المعنى كثير أو قليل • وكان غرضه من ذلك أن يشعرهم بكيانهم وشخصياتهم ، ويزيد

---

(١) عن مجلة الهلال سنة ١٩٣٥ • ومختارات دار الهلال سنة ١٩٤٦ ص١٢٣ •

(٢) الهلال عدد نوفمبر سنة ١٩١٤ •

ثقتهم بأنفسهم ، حتى تنمو شخصياتهم متكاملة على سواء • وبلغ من معاملة صاحبنا لأبنائه معاملة الرجال انه كان يناقشهم مناقشة الند ، ويباحثهم مباحثة النظير ؛ فلا يفرض عليهم رأيا أو حكما ، ولا يستعلى عليهم بالنصح وابداء الأوامر والنواهى التى كثيرا ما تذهب هباء ، ويكتفى من ذلك كله بالمثال الطيب الذى يجده الأبناء فى أبيهم •

ولقد ترك لنا اميل زيدان صورة جميلة من جرجي زيدان الأب ، نشرت فى أعقاب وفاته بقليل ، ولا بأس أن نورد هنا شيئاً منها تكتمل به الصورة العامة ، والملامح التى أردنا أن نثبتها لجرجى زيدان الأب ، فلم نجد أقدر على ابرازها من الابن الذى لا نجد مثله فى الصدق والمعرفة والتجربة التى لمسها عن قرب من أبيه • يقول الابن من مقال عنوانه « الفقيد أبا » فى عدد نوفمبر من الهلال سنة ١٩١٤ : قيل : كل فتاة بأبيها معجبة • فأنا لا أنكر اعجابى بوالدى رحمه الله • ولكن ذلك الأعجاب ليس صادرا فقط عما يربطنى به من العواطف البنوية ، بل هو اعجاب رجل عرف الفقيد حق المعرفة ، ودرس أخلاقه أدق درس • يعرف الناس الفقيد كاتبا ومؤرخا وروائيا ، لكنه كان قبل ذلك أبا بتمام معنى الكلمة • وقليلون هم الآباء الذين يستحقون هذا الاسم • لا تنتظر منى أيها القارىء أن أسرد عليك نعوتا مبتذلة وصفا لأبوة الفقيد • فلست بقائل مثلا : انه كان محبا حنونا شفوقا مضحيا بنفسه ، ونحو ذلك من الصفات التى لعلك قرأتها من العنوان وحده • كلا ! فانى أغنيك

عن سماع المبتذل بذكر بعض أطواره ، ولعلها أبلغ من كل ما يقال في هذا المعنى •

كلما فكرت فى أخـلاق والدى ـ رحمه الله ـ تمثلت سـعة صـــدره قبل سـائر صفاته ، فقـــد كان صـــبورا لا يفوته شيء من واجباته صغيرا كان أو كبيرا • وطالما سمعته يردد القول المعروف أعقل الناس أعذرهم للناس • وكانت تربيته لأولاده تربية استقلالية فانى ما زلت منذ الثانية عشرة أشعر أنه يعاملنى معاملة الرجال ، فكان لى صـــديقا وأبا فى آن واحـد • لم أستحى قط أن أفتح له صدرى فى ساعة الضيق ، وأشكو له متاعبى • وكان يصغى لأولاده بكل لذة ، ويظهر الاهتمام لآرائهم ، وان كان ما يقولونه خاليا من المعنى أحيانا ، ولكن ذلك يزيد ثقتهم بأنفسهم • وقلما اعترضهم فى سلوكهم ومعتقداتهم وآرائهم • وكان يباحثهم كأنهم زملاء له ، ويناقشهم فى سلوكهم ، ويظهر لهم الطريق الصحيح • ولا أذكر أنه لجـأ مرة الى الـكلام الخشـــن ••• وكان يقلل من النصـائح والأرشادات ، مفضلا أن يجعل سلوكه الشخصى مثالا لأولاده ، ونعم المثال) •

نهاية الحياة ودموع الوفاء

من عجيب ما لاحظناه فى أخطاء الوفيات فى عصرنا الحديث هذا الخطأ الذى دار فى المراجع والمصادر حول تاريخ وفاة جرجى زيدان .

ففى الترجمة المنشورة فى آخر الجزء الرابع من « تاريخ آداب اللغة العربية » يقول كاتب السيرة ـ ولم يذكر لنا من هو ـ ان زيدان توفى فى ٢٢ يوليو سنة ١٩١٤ . ولا شك أن أبناء الفقيد قد اطلعوا على هذه الترجمة ، وعلى هذا التاريخ وأقروه ، أو لم يعترضوا عليه ، بدليل نشره فى الطبعات التالية من الكتاب حتى الطبعة الأخيرة التى ظهرت سنة ١٩٥٨ .

وفى النعى الذى نشرته مجلة المقتطف فى عدد شهر أغسطس

سنة ١٩١٤ بقلم الدكتور يعقوب صروف (أن صاحب الهلال توفاه الله بغتة فى يوم الثلاثاء مساء ، فى ٢١ يوليو سنة ١٩١٤) .

وفى مادة « زيدان » من دائرة المعارف الأسلامية ، وهى المادة التى حررها المستشرق كراتشكوفسكى جاء أن الرجل (توفى بالقاهرة فى ٢١ اغسطس سنة ١٩١٤) فبعد شهرا كاملا من تاريخ الوفاة فى المصدرين السابقين .

وفى « معجم المؤلفين » لعمر رضا كحالة أن زيدان (توفى فجأة بالقاهرة فى ٢١ أيلول ـ أى سبتمبر ـ سنة ١٩١٤) . وبهذا بعد تاريخ وفاته شهرين كاملين ..!

وقد تابع شارحو ديوان محمد حافظ ابراهيم ومحققوه فى طبعة دار الكتب المصرية التى أصدرتها وزارة المعارف يومئذ ـ تابعوا القول أو التاريخ الذى أخذ به المستشرق كراتشكوفسكى ونشره فى دائرة المعارف الاسلامية .

والذى اتضح لنا بعد التحقيق والمراجعة لصحافة ذلك العهد ومجلاته الأدبية أن كراتشكوفسكى قد جاءه الخطأ فى التاريخ مما نقله عن مجلة الهلال عدد أكتوبر سنة ١٩١٤ ، وهو أول عدد من الهلال يصدر بعد وفاة صاحبه، وقد نشر النعى فيه مطولا مفصلا(١)،

---

(١) الحق ان هذا النعى كان سيرة مفصلة لحياة جرجى زيدان ، وهى من المصادر الجيدة .

ولكن حدث خطأ مطبعى فى شهر وفاة زيدان ، لم يفطن اليه كاتب النعى ، ولا أدارة الهلال ذاتها ، ولا أحد من أبناء الفقيد وأسرته. وظل هذا التاريخ مرجع المترجمين لسيرة زيدان وعلى رأسهم المستشرق كراتشكوفسكى ، فلم يفطن اليه ، ودونه فى دائرة المعارف ، وأخذه شارحو ديوان حافظ ابراهيم - وهم الأساتذة أحمد أمين ، وأحمد الزين ، وابراهيم الأبيارى - فذكروا هذا التاريخ بدون تحقيق ولا تصحيح .

وعلى الرغم من أن تاريخ وفاة زيدان الذى نشر فى آخر أجزاء « تاريخ آداب اللغة العربية » - وهو ٢٢ يوليو سنة ١٩١٤ - هو أقرب التواريخ مظنة للصحة ، فاننا لا نميل اليه ، فقد يكون خطأ مطبعيا صارخا كالذى صدر فى عدد اكتوبر من الهلال سنة ١٩١٤ وهو التاريخ الذى خدع المستشرق كراتشكوفسكى فأوقعه فى وهم كبير . ونميل الى التاريخ الذى ذكره الدكتور صروف فى مقتطف أغسطس سنة ١٩١٤ ، وهو يوم الثلاثاء مساء ، فى ٢١ يوليو سنة ١٩١٤ .

ولعل السر فى فرق يوم واحد بين التاريخ الذى ذكره صروف ، والتاريخ الذى جاء فى سيرة زيدان بآخر الجزء الرابع من تاريخ آداب اللغة العربية ، يكمن فى أن أهل زيدان شكوا ساعة الوفاة فى وفاة الرجل ، فقد كانت دلائل الصحة بادية عليه قبيل وفاته بلحظات ، وقد مات بين كتبه وأوراقه ، وكانت ملامح

الموت لا تبدو على وجهه ، فحسبها الأهل اغفاءة أو اغماءة • ويؤكد لنا هذا ما جاء فى الترجمة المطولة لحياة زيدان التى نشرت فى جزء أكتوبر من الهلال سنة ١٩١٤ ، فقد جاء فيها : (وبعد أن أقيمت صلاة الجنازة فى الكنيسة لحظ أهله أن هيئة الموت لم تبد على وجه الفقيد ، بل صارت علامات الحياة أظهر فيه مما كانت فى الصباح، ففحصه الأطباء فقالوا : ان كل الدلائل تدل على حدوث الموت •• لكن أهله ظلوا مرتابين ، فعدلوا عن دفنه ، وأقروا على ابقائه الى الصباح • ولما كان الصباح خاب أملهم الضعيف ، فدفنوا فقيدهم وهم يتمنون لو يفدونه بأرواحهم) •

من هنا جاء الخلاف فى يوم واحد بين ٢١ يوليو ، ٢٢ يوليو سنة ١٩١٤ • أما الخلاف فى شهر وشهرين فهو من الأوهام التى نرجو أن يصححها هذا التحقيق •

ولم يكن جرجى زيدان وحيدا فى موتته وهو محاط بالكتب والأوراق بلا سابق انذار ، ولا متقدم اخطار ••• فكثيرون فى القديم والحديث ماتوا هذه الموتة • وهى ميتة شريفة على كل حال، وليست موتة على الفراش كما يموت العير ••• كما قال خالد بن الوليد ، ولكنها أشبه بميتة الجندى فى ساحة الجهاد ؟ أليس طلب العلم جهادا من أشرف المجاهدات ؟ وتذكر موتة زيدان هذه بموتة محمود باشا الفلكى فجأة وهو محاط بالكتب والأوراق كما ذكر زيدان فى سيرته التى كتبها له فى « تراجم مشاهير الشرق » • كما

تذكرنا بموتة أخرى لصديقنا شيخ المترجمين فى العصر الحديث عادل زعيتر ، الذى مات فى بيته بنابلس والقلم بين يديه فى تشرين الثانى — نوفمبر — سنة ١٩٥٧ لأنهما آخر سنة من الهلال .

وقد توقف الهلال عن الصدور بعد وفاة صاحبه شهرين اثنين لأنهما آخر سنة من الهلال ، ثم صدر عدد اكتوبر سنة ١٩١٤ ، وفى فاتحته مقدمة بقلم ابنه « اميل » يقول فيها : (ما أصعب موقف الابن يرثى أباه ! وليس كل الآباء كمن فقدت . وما أعجز الكلام البشرى عن تأدية ما يجيش فى القلب ! لم تكد تنتهى السنة الثانية والعشرون حتى أصيب الهلال بفقد مؤسسه ومنشئه ، فانهدم بموته ركن عظيم من أركان الآداب العربية ، وخسر به العالم رجلا كبيرا بعواطفه ، كبيرا بعقله ، كبيرا بأعماله . وكأنى بموته قد سقط بناء شامخ من العلوم والآداب والأخلاق الراقية . أن ذلك الصدر الواسع الذى ضم العالم واضطراباته بين جناحيه يضمه اليوم قيد باع من الأرض . لكن لا ! لم يمت جرجى زيدان . ولئن جهلنا خلوده فى العالم الآخر ومقره فيه ، فلا ريب فى أنه خالد فى هذا العالم ، خالد فى أفئدة أهله ومحبيه ، خالد بأعماله وآثاره العظيمة) .

ولقد رثى زيدان فى الهلال عقب وفاته كثير من العلماء والأدباء والمفكرين ، منهم أخوه مترى زيدان ، وشبلى شميل ، ورفيق العظم ، وخليل مطران ، وأحمد حافظ عوض الصحافى الأديب ،

ومصطفى لطفى المنفلوطى ، وجبران خليل جبران ، وداود بركات، وأنطون الجميل ، والدكتور شدودى وغيرهم .

وخرجت جنازة زيدان ، وفيها كثيرون من العلماء والأدباء والشعراء وأصدقاء الرجل وتلاميذه ، وعلى رأسهم أحمد حشمت باشا الذي كان وزيرا للمعارف في تلك الأيام ، والذى كان صاحب فضل على الشاعر محمد حافظ ابراهيم ، فأنقذه من مخالب بؤسه ويأسه وتعطله من العمل ، وعينه رئيسا للقسم الأدبى فى دار الكتب المصرية سنة ١٩١١ ..

واشترك لفيف من شعراء مصر فى ذلك العهد فى تأبين جرجى زيدان فى الحفل الذى أقيم له . وقد ازدحمت قائمة الشعراء والخطباء يومئذ بأسماء كثيرة ، أما الذين لم يتسع حفل التأبين لهم، فكان فى الأعداد التالية من مجلة الهلال مجال فسيح لهم .

ولم يتخلف أحمد شوقى ، ومحمد حافظ ابراهيم ، وخليل مطران ـ وهم الذين كانوا يسمون بالشعراء الثلاثة ـ عن المشاركة فى تأبين رجل أحس الجميع بعظم المصيبة فيه ، وكذلك لم يتخلف من بقية الشعراء حفنى ناصف ، وولى الدين يكن ، فقد كانت تربطهما بجرجى زيدان أحكم الصلات .

وقد ألم أحمد شوقى فى مرثيته اللامية وفى مطالع أبياتها بحالة البلاد الشرقية ، وسأل نوابغ الرجال فى الشرق أن يهزوه

لعله يصحو من غفوته ، وناشدهم أن ينفخوا فيه من روح البيان وحقيقة العلم لعله ينهض بعد عثرته ، وسألهم أن لا يجعلوا الدين بابا للشر ، ولا محل مباهاة طائفة على طائفة ، فليس الدين الا تراثا يتبع فيه الابن أباه ، ولا يد له في اختياره، ومضى شوقي في نصائحه لأبناء الشرق ، ثم عرج على العلم وقيمته ، وأن الأمة التى تمشى فى الدنيا بالعلم يأبى الله لها أن تكون مقيدة تمشى بالأغلال . ثم انتقل شوقى الى المفاخرة بنفسه ـ كعهده فى بعض قصائده مثل قصيدته فى رثاء مصطفى كامل ، ونفذ من ذلك الى كثرة فجائعه بفرقة أحبته وكثرة مراثيه لهم ، حتى بات هو من فرقة الأحباب أهلا لأن يرثى. وتطرق الى الموت والى الدنيا الخؤون التى لا أمان عندها ، ولا خلق لها ، ووجد فى الموت أقصى ما يرام من راحة البال . وانتقل بعد هذا الى « الهلال » وما يحتويه من روائع العلم والأدب ، والى مؤلفات زيدان ورواياته ، وكان المقطع الخاص بروايات زيدان التاريخية هو معقد الموازنة بين روايات الحياة ورواية الموت ، وبه ختم مرثيته قائلا :

وضعت خير روايات الحياة ، فضع
رواية الموت فى أسلوبها العالى

وصف لنا كيف تجفو الروح هيكلها
ويستبد البلى بالهيكل الخالى

وهل تحن اليـه بعـد فرقته

كما يحن الى أوطانه الجـالى ؟

هضاب لبنـان من منعاتك اضطربت

كأن لبنـان مـرمى بزلزال

كذلك الأرض تبكى فقـد عالمهـا

كالأم تبكى ذهاب النافع الغالى

ومرثية شوقى على فحولتها واحكام نسجها لم تعطنا صـورة لزيدان الا حين عرج الشاعر على « الهلال » والعلم والأدب ، وهى صورة لم يبلغ بها شوقى مبلغ خليل مطران الذى أجاد عرض صورة زيدان وملامحها الى حد كبير • وقد بدا الحزن والتفجع فى قصـيدة مطران ، وخاصة فى أبيات من مطالعها حيث يقول :

برغم المنى ذاك الختـام المحـير

كتابك تطويه ، ومنعاك ينشر

دهاك الردى فى الرائحين فراعنا

كأنك غـاد فى الصبى فمبـكر

يراعك فى اليمنى ، وذهنك حاضر

وعزمك ذاك العزم والعود أنضر

أما مرثية الشاعر محمد حافظ ابراهيم فقد اسـتهلها بأن الخطوب عقدت لسانه ، وأنه سئم الوقوف على المنابر متلهفا يرثى الراحلين

من أصحابه ، وأنه لا يزال من مصابه في فقد الأمام محمد عبده سنة ١٩٠٥ في أسى يكفيه ، فلا موضع عنده لتحمل أحزان جديدة، وأنه بات بعد موت أصحابه ولداته مفردا وحيدا ينتظر ساعة موته :

دعاني رفاقي والقوافي مريضة
وقد عقدت هوج الخطوب لساني
فجئت وبي ما يعلم الله من أسى
ومن كمد قد شفني وبراني
مللت وقوفي بينكم متلهفا
على راحل فارقته فشجاني
أفي كل يوم يبضع الحزن بضعة
من القلب ؟ اني قد فقدت جناني
كفاني ما لقيت من لوعة الأسى
وما نابني يوم الامام كفاني
تفرق أحبابي ، وأهلي ، وأخرت
يد الله يومي ، فانتظرني أواني ...

بقي من المراثي الشعرية التي اخترناها من قصائد الشعراء في جرجي زيدان قصيدتان : أولاهما لحفني ناصف بك ، والثانية لولى الدين يكن . أما قصيدة حفني ناصف ، ففي مجموعة « شعر حفني ناصف » التي جمعها وأرخ لصاحبه ولده الأستاذ مجد الدين

ناصف ، وقد نهج فيها الشاعر رحمه الله نهجا غريبا لم نألفه فى قصائد الرثاء ، الى حد أن ولده وناشر ديوانه اضطر الى التعليق على المرثية بقوله فى الهامش : (وقد نحا الشاعر فى رثائه نحـوا جديدا ، بأن أغفل المعـانى المطـروقة فى العلم والأدب ، ووصف الحرب وأدواتها الحديثة وأهوالها وصفا واقعيا قويا) (١) • ولعل عذر حفنى ناصف بك فى سلوك هذا المسلك أن الحـرب العالميـة الأولى سنة ١٩١٤ كانت قد اندلعت نارها قبيل وفاة زيدان بأسابيع، وكانت أخبارها تهز العالم هزا عنيفا ، وقد امتلأت أعمدة الصحف بوصف أهوالها ومدافعها ورصاصها وغواصاتها ؟ فنقل الشـــاعر جو القصيدة من الرثاء الموضـوعى المحض الى الأسى والتفجع على العالم الذى يهدده الدمار والخراب • ولعل نشر أبيات هنا من مرثية حفنى ناصف يوضح لنا ذلك المنحى الجديد الذى أشار اليه ولده • يقول الشاعر :

بربك يا زيـدان هـل كنت تعـلم ؟ … بان أديم الأرض يصـــبغه الـدم ؟

وأن صـنوف المـــوت تمـلأ وجهها … فلا موضع الا به النـــار تضرم

فأبغضت ظهر الأرض ، واعتضت بطنها … الا ان بطـن الأرض أنجى وأسـلم

---

(١) شعر حفنى ناصف ، ص ٥٣ •

وعفت قصـــورا بالمصابيح زينت

وراقك قبر فى البـلاقع مظلم

وما حســن قصر كل من فيه خائف

بجــانب قبر فيــه بيت محــرم ؟

أنست بمن تحت الثرى حامد السرى

وألهـاك عنـا عبد ضخم وجرهم

ثم تطرق الشاعر الى الحـرب وأهوالها ، وهو يدعو جرجى زيدان الى أن يؤرخ للأنام حوادث تشيب لها الولدان هولا وتهرم ، فيقول :

مدافع تســتك المســامع دونهـا

وتخـرج من أفـواهـهـن جهنم

اذا فغـرت أفواههـا لكريهـــة

تدك الرواسى والحصـون تحطم

وسفن تبـارت فى المســير أراقما

اذا زال منها أرقم صال أرقم

ويلاحظ غـرام حفنى ناصف حتى سـنة ١٩١٤ بالمحسـنات البديعية فى شعره ، كالجناس بين الثرى ، والسرى ، وبين زال وصال فى البيت الأخير .

أما مرثية الشاعر ولى الدين يكن فلم تكن طويلة ، فلم تتجاوز

أبياتها العشرين بيتا ، وقد لجأ فى ثانى أبياتها الى مناجاة زيدان الذى كان يقضى ليله ساهرا ، ثم هجع وما كان العهد به أن يهجع . ولم يكن سهر زيدان بين الغوانى والملاهى ، ولكنـه سـهر بين المحابر والدفاتر . وأشار الى خسوف (الهلال) ليلة تمامه ، وهى ضجعة ليس من بعدها قيام ، وتمنى على الموت لو أمهله حتى يودع أصحابه ويودعـوه . وخلص من ذلك فى سرعـة الى فضـل زيدان الذى لا تحجبه صخور القبور ولا جنادلها . فهو مثل « الراديوم » النفاذ الذى تخترق أشعته أكثف الأجسام . ولا بأس من ايراد بضـعة أبيات من هذه المرثية :

نادوا بألسـنة الرثاء فأسـمعوا
جهد الحـزين تذكر وتوجـع

يا سـاهرا والليـل يعثر بالكرى
عجبـا هجعت وما عهدتك تهجع

بين المحـابر والدفـاتر مجلس
هو للمعـارف والمعـالى موضـع

خسـف الهـلال به عشـية تمـه
من بعـد ما قد كان منـه يطلع

هى ضجعـة ما أعقبتهـا نهضـة
فقضى الضجيع كما أقض المضجع

لو أمهلتك لكى تودع معشرا
سبقت قلوبهم اليك تودع

* * *

زيدان فضلك ليس يحجبه الثرى
الفضل من تحت الجنادل يسطع
كالراديوم الوهاج الا أنه
أمضى شعاعا فى العيون وأبدع ..

بقى أن نقول ان هناك كثيرين من الأدباء الشعراء فى الوقت الذى مات فيه زيدان لم يتخلفوا عن المشاركة فيما رأوه واجبا عليهم نحو رجل خدم اللغة والأدب والتاريخ أكثر من ثلاثين عاما . وظل «هلاله» يتنقل فى سماء الأدب والعلم اثنين وعشرين عاما ، فنظموا من القصائد ما يعبر عن شعورهم بالفجيعة . ومن هؤلاء الطبيب السورى المتمصر الدكتور ابراهيم شدودى (١) ، الذى كان يقول الشعر من

---

(١) ليس للدكتور ابراهيم شدودى ديوان مطبوع . وكان شعره - وخاصة زجلياته الفكاهية - ينشر فى الصحف والمجلات فى ذلك العهد . ولم نعثر له على ترجمة فيما بين أيدينا من مصادر ، وتحدث عنه الاب لويس شيخو اليسوعى بسطر واحد فى كتابه « الآداب العربية فى الربع الاول من القرن العشرين ص ١٦٤ قائلا : (وعنى الدكتور شدودى ابراهيم - يريد ابراهيم شدودى - بالزجليات ، فأخرجها على صورة لطيفة انتشرت بعدة جرائد) .

حين الى حين . وقد قرأنا له فى رثاء زيدان قصيدة جيدة نشرت فى هلال سنة ١٩١٤ وفيها يقول :

مقامك فوق العلا صاعد
وجسمك تحت الثرى راقد
وصيتك يجتاز عرض البحار
وأنت طويل الكرى هامد
وجيل يبيد ، وجيل يجيء
وذكرك ما بينهم خالد
وفضلك بين بنى الشرق رغم
تباين أديانهم واحد ...
ولست بمفتقر للشهود
ففى كل مكتبة شاهد

ولقد رأينا دموع أهل زيدان تنهمر مع دموع الباكين عليه ، فاذا ولده اميل ينعاه ويرثيه فى كلمة باكية مبكية تذيب القلوب ، نشرها فى أول عدد من الهلال صدر بعد وفاة الفقيد ، ورأينا شقيقه مترى يرثيه أيضا بكلمة فى العدد نفسه ، وقرأنا بضعة أبيات لشقيقه «ابراهيم زيدان» ـ صاحب مكتبة الهلال بالفجالة ـ يرثى بها أخاه

وقد أودعها ديوانه الذى نشره بعنوان « ذكريات » ـ وصدر عن مكتبة الهلال بدون تاريخ ـ وفيها يقول :

قضى دون أن يقضى مناه ، ومن يذب
قريحتـه فى العـلم من قبـره يدنو

ذوى غصـــنه رطبـا ، وقلبى حـائم
عليـه فـذاق القلب ما ذاقـه الغصن

اذا حـال داعى البـين بينى وبينـه
فروحى ما زالت الى روحــه ترنو

يقولون لى صبرا فما الدمع فى الأسى
بمجد ، فقلت الصبر أن تصبر العين

عليك سـلام الله ما فاض مدمعى
وما هاج من ذكراك فى كبدى حزن

ألسنة الخلق أقلام الحق

سنجعل هذا الفصل معرضا لآراء الباحثين والمفكرين والعلماء والأدباء في تقدير جرجي زيدان ووزنه بموازين العدل من وجهات نظر مختلفة لأصحاب هذه الموازين . ولعل هذا المعرض - بما احتشد فيه من آراء الرجال - يصور لنا جرجي زيدان على أتم صورة وأقربها الى الحقيقة .

وكل رأي هنا هو خلاصة مركزة لفكرة صاحبه عن المترجم له ، وقد تلتقي بعض هذه الخلاصات فيتكرر الرأي عند اثنين أو أكثر ، وقد يكون الرأي فريدا لم يشترك معه غيره من الآراء ، والنتيجة سواء في التفرد والالتقاء ، وهي أن جرجي زيدان شغل من تفكير المفكرين ما يستأهله من التقدير والحمد والثناء .

• فالدكتور محمد حسين هيكل يقول عن زيدان : (جرجي

أفندى زيدان من أكبر كتاب التاريخ فى مصر ، بل لا أبالغ اذا قلت انه هو الرجل الوحيد المتفرغ فى الوقت الحاضر لكتابة التاريخ). « فى أوقات الفراغ » ص ٢١٥ .

• والدكتور طه حسين يقـول : (ان جـرجى زيدان هو الذى نقل الى الأدب العربى مذهبا من مذاهب الأدب الأوربى : هو القصص التاريخى) . « من أعلام الفكر والأدب » ص ٨٧ .

• والمرحوم عباس محمود العقاد يقول : (ان جرجى زيدان من كتاب ما يسميه هو بالحاسة الاجتماعية ، ونسميه نحن بكتاب الاستواء والطبع السليم . تقرأ جرجى زيدان فى جميع موضوعاته فاذا هو مطبوع بطابع السداد والاستقامة والسـواء . هى جدول وليست بشلال ، وهى بنت الدوام وليست بنت الفلتات واللمحات) « المصدر السابق » .

• والدكتور يعقوب صروف يقـــول عن مؤلفـات زيدان : (... واستخلص من ذلك كتبا ممتعة فى آدابها ، تشهد له بسعة الاطلاع ، وأصالة الرأى ، والبراعة فى التبويب والتنسيق ، فكان لهذه الكتب شأن كبير شرقا وغـربا ، وترجم بعضـها الى كثير من اللغات الشرقية والغربية . وبحث فى تواريخ دول الاسلام وألف فيها كتابا جليلا ، وبنى على نوادرها سلسلة من الروايات التاريخية الفكاهية ، جمع فيها زبدة تواريخ تلك الدول على أسلوب لا يمله القارىء) « مجلة المقتطف » . عدد سبتمبر سنة ١٩١٤ .

• والشيخ أحمد الاسكندرى وزملاؤه أحمد أمين ، وعلى الجارم ، وعبد العزيز البشرى ، وأحمد ضيف يقولون : (.. من هذا القدر الموجز من تاريخ جرجى زيدان تدرك مبلغ همته ، وصدق عزمه ، وشدة بلائه فى سبيل العلم والأدب • وخاصة اذا ذكرت أنه بدأ الحياة وهو مقطوع الوسائل ، مبتور الذرائع ..) « المفصل ج ٢ ص ٤٠٢ » •

• والشيخ مصطفى لطفى المنفلوطى يقول فيه : (تطلع الشمس فى كل صباح من شرقها على هذه الكائنات ، ناطقها وصامتها ، حيها وميتها ، جامدها وسائلها ، فتستمد منها كل مادة حياتها التى تقومها ، أو صورتها التى تتشكل بها • وكذلك كان جرجى زيدان فى سماء هذا البلد • لقد كان زيدان روحا عالية تمنيناها ، فلما وجدناها نعمنا بها قليلا ، ثم فقدناها أحوج ما نكون اليها) « مجلة الهلال » سنة ١٩١٤ •

• والصحافى الأديب أحمد حافظ عوض يقول : (لا أظن أنه وجد فى العالم العربى ، فى العصر الأخير ، من ترك كمية كبيرة من العمل العلمى والأدبى الجدى مثل منشىء الهلال • فأن رواياته ومجلدات الهلال ، ومؤلفاته التاريخية واللغوية والأدبية تكون فى مجموعها موسوعات كبيرة • ولولا أننا ونحن المعاصرين « كذا » له نعلم علما لا مسرب للظن فيه أن الفقيد هو الذى كتب بقلمه كل هاتيك المنشآت ، ورتب أبوابها ، وابتكر موضوعاتها ، وراقب بنفسه

طبعها ووضعها ، منفردا لا يملى على محررين مأجورين ، ولايشترك مع طائفة من الأدباء الكاتبين ، لولا ما نعلمه من يقين صحيح لداخلنا الشك أو تسربت الينا بعض الظنون بأنه لم يكن فيه منفردا ، ذلك لأنه عمل كبير مستعظم على كاتب واحد) • « الكتاب الذهبى للهلال سنة ١٩٤٢ » •

• والصحافى الأديب أنطون الجميل يقول : (فى هذا الجمع الموقر الذى التف حول الهلال كثيرون هم زملاء الفقيد ورصفاؤه فى معاناة صنعة القلم ؛ فهم أدرى من سواهم بما يكابده المؤلف فى الشرق من العناء فى جمع مواده وتأليفها فى أى فن من فنون الكتابة• لذلك يدرون كم كانت لغتنا مدينة لجامع أشتات تاريخها وتاريخ آدابها ، وتاريخ شعوبها) « مجلة الهلال • عدد نوفمبر سنة ١٩١٤ » •

• ومؤرخ الاسلام رفيق العظم يقول : (انى عانيت من تاريخ العرب ما يعانيه المؤرخون ، وعرفت من صعوبته ما لم يعرفه الا من عانى ما عانيت من المشقة فى انتقاء الحوادث والأخبار• فلم أر أحسن من الأسلوب الذى اتبعه فى كتبه المرحوم جرجى زيدان ، ولا أدق ترتيبا للمواضيع ، واختيارا للحوادث ، خصوصا فيما يتعلق بالمدنية الاسلامية • فحق على كل مؤرخ أن يعترف بفضل جرجى زيدان

على التاريخ العربى ، ببيان ما لم يسبق اليه من آثار المدنية العربية وتاريخها) « الكتاب الذهبى للهلال » .

• والمحامى الأديب سامى الجريديني يقول : (ابتدأ زيدان يحرر الهلال منذ عشرين سنة ونيف ، فكان فى أول سنة من سنى الهلال يقف الى مكتبه وقوفا ، يحرر فصلا أدبيا أو اجتماعيا ، ويترجم رجلا مشهورا ، ويؤلف رواية تاريخية ، ثم يراقب الطبع والتصحيح ، دائبا على العمل نهارا وليلا . ثم توفى ، وكان قبل الوفاة ببضع دقائق واقفا وقفته ، لم يقلل ساعات العمل ، ولم يتضجر أو يتأفف يوما من كثرته) مجلة الهلال سنة ١٩١٤ .

• ويقول الأب لويس شيخو اليسوعى : (... على أننا لا ننكر أنه كان أحد أركان النهضة الأدبية الجديدة فى الشرق الأدنى) « الآداب العربية فى الربع الأول من القرن العشرين » ص ٧١ .

• ويقول الأستاذ أنيس المقدسى : (... هذا من حيث القصة ، أما من حيث مؤلفات زيدان التاريخية والأدبية فانه يحتل الصدارة بين كتاب العصر . وهو ركن كبير من أركان النهضة الأخيرة) « الفنون الأدبية وأعلامها » ص ٥١٧ .

• ويقول الأستاذ يوسف أسعد داغر : (خصص حياته لجلو وتطهير التاريخ العربى والاسلامى ، فكان بذلك من أكبر خدام

القضية العربية ، والعامل الأكبر فى البعث القـومى) : « مصـادر الدراسة الأدبية » حـ ٢ ص ٤٤٣ •

• ويقول الأستاذ مارون عبود : (ان لزيدان فضلا جزيلا على النهضـة الحديثـة ، فهو من أركانها الكبـار • قد علم الناس تاريخهم ، وسلاهم معا) « رواد النهضة الحديثة » ص ١٧٢ •

• ويقول المرحوم طاهر الطناحى: (اذا ذكر العصاميون الذين بنوا أنفسهم ، وشادوا للانسانية صروحا عالية فى مختلف الميـادين بأعمالهم المجيدة ، وجهودهم الممتازة ، فان جرجى زيدان فى المقدمة بين هؤلاء العصاميين الأفذاذ) «عصاميون عظماء من الشرق والغرب» ص ٦١ •

• ويقول الدكتور حسين مؤنس : (••• وأنا أشير الى ذلك هنا لأن قصة كفاحه تلك هى أحسن تفسير لما نجد فى مؤلفاته من التبحر والاحاطة وصدق الملاحظة وعمق النظرات • فما كان هذا كله يتأتى لرجل ، الا اذا كانت حياته قد أذكت فى كيـانه فحولة كفيلة بالوصول بصاحبها الى ما لا يصـل اليه من لم يعرف مغالبة الظروف ، ومطاولة الأيام) « تاريخ التمـدن الأسـلامى » المقدمة ص ٦ •

• ويقول المرحوم الدكتور جمال الدين الشـيال : (وكبير المؤرخين السوريين فى مصر فى أواخـر القـرن التاسع عشر هو

جرجى زيدان) (وجرجى زيدان يعتبر الرائد الأول فى كتابة القصة التاريخية) • « التاريخ والمؤرخون فى مصر » ص ١٨٥ - ١٨٦ •

• ويقول الدكتور محمد يوسف نجم : (••• واستطاع بآثاره العلمية والأدبية والصحفية أن يرضى الطبقات المختلفة • ألف كتبا علمية وتاريخية ترضى الخاصة ، وألف هذه القصص ، التى اعتمد فيها على تاريخ العرب والمسلمين ، لكى يلفت اليه أنظار العامة التى كانت تتلهى بالقصص الشعبى وأكثره تافه • واستطاع زيدان أن يرضى هذه الطبقة أيضا وأن يستميلها الى قصصه ، كما أرضى بآثاره الأخرى سواها من الطبقات • وهكذا كان زيدان معلما للشعب بعامته ، على اختلاف طبقاته وثقافاته ••) « القصة فى الأدب العربى الحديث » ص ١٨٨ •

• ويقول الدكتور عبد المحسن طه بدر : (وقد حاول جرجى زيدان فى ميدان الرواية ما حاوله مطران فى ميدان الشعر ، فحاول التوفيق بين متطلبات البيئة من ناحية ، وبين تأثره بالشكل الروائى الغربى من ناحية أخرى • وكان له أكبر الأثر فى ظهور التيار الثانى من الرواية التعليمية) « تطو الرواية العربية الحديثة » ص ١٠٦ •

• ويقول المستشرق الروسى كراتشكوفسكى : (وقد أبرز

الربع الأول من القرن العشرين ما كان لزيدان من شأن كبير . وسيظل اسمه مذكورا على الدوام فى تاريخ الأدب العربى الحديث، وفى المجتمع العربى الحديث) « دائرة المعارف الاسلامية » .

مادة زيدان المجلد ١١

• ويقول الدكتور محمود حامد شوكت : (فلا ينكر أن الكاتب - يريد زيدان - بذل جهده فى توسيع أفق الثقافة التاريخية، لا سيما نواحى الحرب والسياسة والحياة الاجتماعية فى التاريخ الاسلامى الوسيط ، وحاول أن ينتفع بمطالعاته فى الثقافة الغربية ، متأثرا بمحاولات علم النفس ، للعواطف والنزعات ، والحب والبغض ، وفتح بذلك باب الاجتهاد والارتياد لمن يواصل الكتابة فى هذا الباب ، فهو رائد له فضل التضحية والجهاد ، وقد ترك لمن بعده مواصلة الاجتهاد فى تمثل التاريخ والتعبير عنه فى فن ذى وحدة أعمق ، وذى معنى أكثر انسانية ...) « الفن القصصى فى الأدب المصرى الحديث » ص ١٥١ - ١٥٢ .

• ويقول أحمد أمين والدكتور زكى نجيب محمود : (وأخيرا جاء جورجى زيدان ، فنحا بالتاريخ نحوا جديدا اتبع فيه أسلوب الفرنج فى جمع النصوص وبحثها ، والاستنتاج منها ، ودراسة الأسباب والنتائج) - « قصة الأدب فى العالم » جـ ٣ ص ٣٤١ .

مؤلفاته

لقد أشار المرحوم أحمد حافظ عوض الى ضخامة الانتاج الذى أخرجه جرجى زيدان ، وقال بأنه لولا يقيننا وعلمنا الذى لا مسرب للظن فيه بأن الرجل هو الذى كتب بقلمه كل هذا الانتاج منفردا ، لم يشركه فيه واحد ، لداخلنا الشك أو تسربت الينا الظنون بأنه لم يكن فيه منفردا ، ذلك لأنه عمل كبير مستعظم على كاتب واحد .

والذين يعنون بتقسيم الموضوعات التى ألف فيها زيدان لا يجدون صعوبة فى ملاحظة أنها تتناول التاريخ ، والتراجم والسير ، والجغرافية ، وتاريخ الآداب العربية، والاجتماع ، والقصة التاريخية الطويلة . وسنتناولها كتابا كتابا ، مع الاهتمام بايضاح موضوع كل كتاب وتاريخ صدوره ، وما أثير حوله من نقد .

أولا : كتب التاريخ

١ ـ تاريخ التمدن الاسلامى. وكانت أولى طبعاته سنة١٩٠٢، لا سنة ١٩١٠ كما ذكر الدكتور حسين مؤنس ـ وهما ـ فى مقدمته للطبعة الأخيرة من هذا الكتاب ، وجاء الوهم الى الدكتور مؤنس من قول زيدان نفسه فى مقدمة الطبعة الأولى بأنه رأى أن يجعل تتمة السنة « العاشرة » من الهلال كتابا فى هذا الموضوع ، ففهمها الدكتور حسين مؤنس بأنها سنة ١٩١٠ ، والحق أنها السنة العاشرة من انشاء الهلال ، أى سنة ١٩٠٢ وقد صدر الكتاب فى خمسة أجزاء تقرب من ألف ومائتى صفحة . وهو مزين بالصور والرسوم الكثيرة ، والخرائط ، والأشكال التوضيحية . وقد تناوله بالنقد جماعة منهم الأب لويس شيخو اليسوعى فى مجلة المشرق ، والدكتور يعقوب صروف فى المقتطف ، ومصطفى جواد فى السنة التاسعة عشرة من مجلة العرفان التى أنشأها أحمد عارف الزين فى صيدا بلبنان .

٢ ـ تاريخ مصر الحديث مع فذلكة فى تاريخ مصر القديم. وقد ظهرت طبعته الأولى بمصر سنة ١٨٨٩ ، أى قبل صدور مجلة الهلال بعامين . ونشرت المقتطف نقدا له فى العام نفسه . وقد أودعه المؤلف مشاهداته لأحداث مصر فى عصره ، كما أودعه أخبار عهد الاحتلال البريطانى ، وما رآه بعينه فى الحملة النيلية الأنجليزية على السودان لانقاذ غوردون باشا .

٣ ـ العرب قبل الأسلام . وقد صدر منه جـزء واحد فقط سنة ١٩٠٨ ، ولم تصدر بعد ذلك بقية أجـزائه . وتولت مجلتـا المقتطف ، والمشرق نقده ، وقد ظهرت له أخيرا طبعة محققة ومعلق عليها بقلم الدكتور حسين مؤنس .

٤ ـ التاريخ العام ، منذ الخليقة الى الآن . وقد صـدر منـه جزؤه الأول سنة ١٨٩٠ ببيروت ، ولم يكمله بعد ذلك . وقد نقده المقتطف فور صدوره فى المجلد الرابع عشر .

٥ ـ تاريخ انكلترا الى الدولـة اليوركية . وقد صـدر عن مطبعة الهـلال بمصر سـنة ١٨٩٩ . وهـو تاريخ وجيز لا تزيد صفحاته على الثمانين الا قليـلا . وقد نشر نقـد له فى المقتطف بالمجلد ٢٣ ، وفى مجلة المشرق بالسنة الثالثة .

٦ ـ تاريخ الماسونية العام . وقد صدر بمصر سنة ١٨٨٩ . وفى السنة الرابعة عشرة من مجلة المقتطف نقد له . ووصفه الأب شيخو بأن مؤلفه « ذهب فيه الى مذاهب صبيانية خرافية ، اعتبرها كحقائق راهنة » .

٧ ـ تاريخ اليونان والرومان . وقد صـــدر عن مصر بدون تاريخ .

٨ ـ طبقات الأمم ، أو السلائل البشرية . ظهرت أولى طبعاته بالقاهرة عن مطبعة الهلال . وانتقده الدكتور يعقوب صروف فى

المقتطف ، والأب أنستاس ماري الكرملي في لغة العرب ، والأب لويس شيخو في المشرق .

٩ ـ أنساب العرب القدماء . ويذكر يوسف أسعد داغر أنه طبع في مطبعة الهلال سنة ١٩٢١ ، أي بعد وفاة زيدان ببضعة أعوام . ولا أدري اذا كانت صدرت له طبعة قبل هذه . وقد أغفل كراتشكوفسكي ذكر تاريخ طبعه ، وأضافه الى بعض كتب جرجي زيدان التي « لم تلق نجاحا كبيرا » .

ثانيا : كتب التراجم والسير

١٠ ـ تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر . وقد صدرت أولى طبعاته عن دار الهلال سنة ١٩٠٢ ، لا سنة ١٩٠٧ ، كما وهم الأستاذ يوسف أسعد داغر . وظهرت طبعته الثانية سنة ١٩١٠ لا سنة ١٩١١ ، كما جاء عند داغر أيضا . وقد تناول نقده المقتطف في المجلد ٢٨ سنة ١٩٠٣ ، كما انتقده الأب لويس شيخو اليسوعي في المشرق بالسنة السادسة .

ثالثا : كتب الجغرافية

١١ ـ عجائب الخلق ، ونستطيع أن نعده من كتب التاريخ الطبيعي ففيه أمثلة كثيرة من عجائب المخلوقات . وقد طبع سنة ١٩١٢ في أولى طبعاته عن دار الهلال .

١٢ ـ مختصر جغرافية مصر . وقد طبع لأول مرة فى مطبعة التأليف سنة ١٨٩١ ، وهى المطبعة التى أنشأها زيدان ونجيب مترى مشتركين كما فى الفصل الخاص بموجز سيرة الرجل ، وهو صغير الحجم يبلغ حوالى سبعين صفحة .

رابعا : مؤلفات فى اللغة العربية وتاريخ آدابها

١٣ ـ الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية . واسمه فى سيرة زيدان الملحقة بالجزء الرابع من تاريخ آداب اللغة العربية : « الفلسفة اللغوية » ، واسمه عند المستشرق كراتشكوفسكى « فلسفة اللغة العربية » . وقد أسماه يوسف أسعد داغر « الألفاظ العربية والفلسفة اللغوية » ، على أن زيدان نفسه يذكره فى مقدمة كتابه « اللغة العربية كائن حى » باسم « الفلسفة اللغوية » . وكانت أولى طبعات الكتاب سنة ١٨٨٦ ببيروت ، وهو الكتاب الذى استحق من أجله عضوية المجمع الآسيوى الملكى فى ايطاليا . وقد انتقده المقتطف فى السنة العاشرة ، لا فى السنة الثامنة كما ذكر خطأ يوسف أسعد داغر .

١٤ ـ تاريخ اللغة العربية : باعتبار أنها كائن حى نام ، خاضع لناموس الارتقاء وقد ظهرت أولى طبعاته سنة ١٩٠٤ عن مطبعة الهلال بمصر . ونشرت المقتطف نقدا له فى سنتها الرابعة

والعشرين . وصدرت طبعة أخيرة جديدة لهذا الكتاب بمراجعة الدكتور مراد كامل وتحقيقه .

١٥ ـ البلغة فى أصول اللغة . ولم نهتد اليه ولا الى تاريخ طبعه . وقد كاد ينفرد بذكره كتاب « مصادر الدراسة الأدبية » ليوسف أسعد داغر . أما ترجمة زيدان فى آخر الأجزاء من تاريخ آداب اللغة العربية فلم تذكره ولم تشر اليه فى ثبت مؤلفاته ، كما لم يذكره كراتشكوفسكى . أما يوسف أليان سيركيس فقد ذكره معجمه بدون تاريخ ولعله هو الذى نقل عنه يوسف أسعد داغر .

١٦ ـ تاريخ آداب اللغة العربية . فى أربعة أجزاء ضخام . ظهرت أولى طبعاته سنة ١٩١١ ، ولنا دراسة مفصلة عنه فى الجزء العاشر من المجلد الرابع من « تراث الانسانية » . وصدرت له طبعة أخيرة جديدة بتعليقات واضافات كثيرة فى الهوامش بقلم الدكتور شوقى ضيف . ولا نميل الى رأى الدكتور أنطون كرم الذى لا يرى (أن شوقى ضيف الذى تولى الاشراف على الطبعة الأخيرة، قد أضاف كبير شىء الى هذه الموسوعة الأدبية الوصفية) فان تتبعه لما استحدث من كتب ودراسات بعد الطبعات الماضية من هذا الكتاب كان عملا يستحق التنويه به . وقد انتقده الأب الكرملى فى مجلة لغة العرب ، والأب لويس شيخو فى المشرق سنة ١٤ ، جزء ٨ ، ونجفى من آل كاشف الغطاء فى مجلة العرفان بصيدا ، والشيخ

أحمد الاسكندرى فى مجلة المنار للسيد رشيد رضا . سنة ١٥ . وسنة ١٦ .

خامسا : مؤلفات فى الاجتماع

١٧ ـ علم الفراسة الحديث . وموضوعه الاستدلال على أخلاق الناس وقواهم ومواهبهم من النظر الى أشكال أعضائهم . وقد ظهرت أولى طبعاته عن دار الهلال سنة ١٩٠١ . وقد قال عنه الأب شيخو : (ومما لم نستحبه له كتاب علم الفراسة الحديث ، مع ما فيه من الأوهام والخيالات) . وفى المجلد السادس والعشرين من المقتطف نقد له ، كما أن فى مجلة المنار سنة ١٩٠١ نقدا آخر له .

١٨ ـ مختارات جرجى زيدان. وهو مجموع مقالات نشرت فى أعداد متفرقة من الهلال فى فلسفة الاجتماع والعمران ، وجمعت فى كتاب واحد يشتمل على ثلاثة أجزاء ، ظهر بعد وفاة زيدان بستة أعوام سنة ١٩٢٠ . وقد نشرت مجلة المشرق نقدا له فى المجلد ٣٠ .

١٩ ـ رد رنان على نبش الهذيان . وقد ظهرت طبعته الأولى سنة ١٨٩١ وهو رد على الكتاب الذى ألفه أمين المدنى فى نقد

زيدان ، وهــو أصغر كتب زيدان حجما ، ويقع فى اثنتين وثلاثين صفحة •

سادسا : الروايات التاريخية

تبلغ روايات جرجى زيدان التاريخية ثلاثا وعشرين رواية• وقد سبق لنا حصرها والحديث عنها فى فصل خاص صفحة ٩٥ ـ ٩٨ •

سابعا المخطوطات :

• مصر العثمانية : ويشمل تاريخ مصر من الفتح العثمـانى الى الحملة الفرنسية ، ويقع فى أربعة أجزاء • وكان هذا الكتـاب معدا ليكون محاضرات تلقى فى الجامعـة المصرية القديمة • ومنـه نسخة بخط جرجى زيدان نفسه مودعة بجامعة فؤاد الأول ـ ٧٥ م ، ف ٣٠٠٢ •

المراجع والمصادر

مرتبة وفق حروف الهجاء

١ ـ الآداب العربية فى القرن التاسع : الأب لويس شيخو اليسوعى ، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين ، بيروت سنة ١٩٢٤ .

٢ ـ الآداب العربية فى الربع الأول من القرن العشرين : الأب لويس شيخو اليسوعى ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت سنة ١٩٢٦ .

٣ ـ الاتجاهات الأدبية فى العالم العربى الحديث : أنيس المقدسى ، بيروت سنة ١٩٦٠ .

٤ ـ الأدب العربى فى آثار الدارسين : لجنة من الأساتذة ، بيروت سنة ١٩٦١ .

٥ ـ تاريخ آداب اللغة العربية : جرجي زيدان ، الطبعة ٣ ـ دار الهـلال ، مصر سـنة ١٩٣١ والطبعـة الأخيرة ، القـاهرة سنة ١٩٥٩ .

٦ ـ تاريخ التمـدن الأسـلامى : جرجي زيدان ، الطبعـة الأخيرة ، مطبعة الهلال سنة ١٩٥٩ .

٧ ـ تاريخ الدعوة الى العامية وآثارها فى مصر : الدكتورة نفوسة زكريا سعيد ، القاهرة سنة ١٩٦٤ .

٨ ـ تاريخ الصحافة العربية : الفيكونت فيليب دى طرازى، المطبعة الأمريكانية ،بيروت سنة ١٩٣٣ .

٩ ـ تاريخ الطباعة فى الشرق العربى : خليل صابات ، دار المعارف ، مصر سنة ١٩٥٨ .

١٠ ـ تاريخ مصر الحديث : جرجي زيدان ، مطبعة الهلال ، القاهرة سنة ١٩٢٥ .

١١ ـ التاريخ والمؤرخون فى مصر : جمال الدين الشيال ، القاهرة سنة ١٩٥٨ .

١٢ ـ تراث الانسانية ، المجلد الرابع ، العدد العاشر ، القاهرة سنة ١٩٦٦ .

١٣ ـ تراجم مشاهير الشرق : جرجي زيدان ، مطبعة الهلال القاهرة سنة ١٩١٠ .

١٤ ــ التراجم والسير : محمد عبدالغنى حسن ، دار المعارف، مصر سنة ١٩٦٩ ٠

١٥ ــ تطور الرواية العربية الحديثة : عبد المحسن طه بدر ، دار المعارف ، مصر سنة ١٩٦٣ ٠

١٦ ــ دائرة المعارف الاسلامية : مادة زيدان ، المجلد الحادى عشر ٠

١٧ ــ ديوان الخليل : خليل مطران ، مطبعة دار الهلال ، القاهرة سنة ١٩٤٩ ٠

١٨ ــ ديوان ذكريات : ابراهيم زيدان ، مكتبة الهلال ، القاهرة ، بدون تاريخ ٠

١٩ ــ ديوان شعر حفنى ناصف : جمع ولده مجد الدين ناصف ، دار المعارف سنة ١٩٥٧ ٠

٢٠ ــ ديوان الشوقيات : أحمد شوقى ، حـ ٣ ، القاهرة سنة ١٩٣٦ ٠

٢١ ــ ديوان محمد حافظ ابراهيم : شرح لجنة من الأساتذة، مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٣٧ ٠

٢٢ ــ ديوان ولى الدين يكن ، مطبعة المقطم والمقتطف ، مصر سنة ١٩٢٤ ٠

٢٣ ـ رواد النهضة الحديثة : مارون عبود ، بيروت سنة ١٩٥٢ .

٢٤ ـ شكرى شعشاعة الانسان الأديب : البدوى الملثم ، عمان ، الأردن سنة ١٩٦٤ .

٢٥ ـ العرب قبل الاسلام : جرجى زيدان ، دار الهلال ، مصر سنة ١٩٥٩ .

٢٦ ـ عصاميون عظماء من الشرق والغرب : بأقلام نخبة من الكتاب . دار الهلال . القاهرة .

٢٧ ـ الفن القصصى فى الأدب المصرى الحديث : محمود حامد شوكت ، القاهرة بدون تاريخ .

٢٨ ـ الفنون الأدبية وأعلامها : أنيس المقدسى ، بيروت سنة ١٩٦٣ .

٢٩ ـ فى أوقات الفراغ : محمد حسنين هيكل ، ط ٢ ، القاهرة سنة ١٩٦٨ .

٣٠ ـ القصة فى الأدب العربى الحديث : محمد يوسف نجم، القاهرة سنة ١٩٥٢ .

٣١ ـ الكتاب الذهبى للهلال ، القاهرة سنة ١٩٤٢ .

٣٢ ـ اللغة العربية كائن حى : جرجى زيدان ، دار الهلال. مصر .

٣٣ ـ مختارات دار الهلال ، مطبعة دار الهلال ، مصر سنة ١٩٤٦ .

٣٤ ـ مرآة العصر ، فى تاريخ ورسوم أكابر الرجال بمصر : ألياس زخورة ، مصر سنة ١٨٩٧ .

٣٥ ـ مصادر الدراسة الأدبية : يوسف أسعد داغر ، بيروت سنة ١٩٥٥ .

٣٦ ـ مصطفى كامل : عبد الرحمن الرافعي ، مطبعة الشرق ، القاهرة ١٩٣٩ .

٣٧ ـ مع المخطوطات العربية : أغناطيوس كراتشكوفسكى ، مطبعة التقدم ، موسكو ، بدون تاريخ .

٣٨ ـ معالم الفكر العربى المعاصر : أنور الجندى ، القاهرة سنة ١٩٦٦ .

٣٩ ـ معجم المطبوعات العربية والمعربة : يوسف أليان سركيس ، القاهرة سنة ١٩٢٨ .

٤٠ ـ معجم (الأعلام) : خير الدين الزركلى ، القاهرة .

٤١ ـ معجم المؤلفين : عمر رضا كحالة ، مطبعة الترقى ، دمشق ١٩٦٠ .

٤٢ ـ المفصل فى تاريخ الأدب العربى : أحمد الأسكندرى وزملاؤه ، مصر سنة ١٩٣٦ ٠

٤٣ ـ من أعلام الفكر والأدب : أنور الجندى ، القاهرة سنة ١٩٦٤ ٠

٤٤ ـ الموسوعة العربية الميسرة : اشراف محمد شفيق غربال، القاهرة سنة ١٩٦٥ ٠

٤٥ ـ النثر العربى المعاصر فى مائة عام : أنور الجندى ، القاهرة « بدون تاريخ » ٠

٤٦ ـ الهلال الماسى ٧٥ عاما ، دار الهلال ، القاهرة ١٩٦٧٠

المجلات

مجلدات الهلال ، والمقتطف ، والمنار ، والمشرق ٠

فهرس

الموضوع	الصفحة
الحيـاة فى سطور	٧
صور من الطفولة والمدرسـة	١٥
العصامية وسر النجـاح	٢٥
رحـلات ومشاهدات	٣٥
زيدان المعـلم والأستاذ	٤٥
مناهج التـأليف عنـد زيدان	٥٥
المؤرخ ومنهجه التـاريخى	٦٧
كاتب التراجم	٧٧
رائد فى تاريخ الأدب	٨٧
زيدان والروايات التاريخيـة	٩٥
بين الصحافة والصـحافة الأدبية	١٠٧
التثقيف الذاتى والتعويل على المصادر	١١٩
كتب زيدان بين النقـد والرواج	١٢٧
أسلوب زيدان بين اللفظ والمعنى	١٣٩
موقف حـائر	١٥٣

الموضوع	الصفحة
بين العلم والسياسة	١٦٣
صـلاته بالمستشرقين	١٧٣
نزعة شعبية غير أرستقراطية	١٧٩
باقة من الأخلاق	١٨٥
زيـدان الأب	١٩٣
نهاية الحياة ودموع الوفاء	٢٠٥
ألسنة الخلق أقلام الحق	٢٢١
مؤلفـــاته	٢٢٩
المراجع والمصادر	٢٣٧

المطبعة الثقافية

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٠/٥١٢٥

ملتزم التوزيع
في الجمهورية العربية المتحدة وجميع انحاء العالم
الشركة القومية للتوزيع

مكاتب الشركة بالجمهورية العربية المتحدة

١ ـ فرع شريف	٣٣ شارع شريف	تليفون ١٠٠١٢	القاهرة
٢ ـ فرع ٢٦ يوليو	١٩ شارع ٢٦ يوليو	٥٥٠٣١	القاهرة
٣ ـ فرع ميدان عرابي	٥ ميدان عرابي	٤١٣٨٣	القاهرة
٤ ـ فرع المبتديان	١٣ شارع محمد عز العرب	٢١١٦٧	القاهرة
٥ ـ فرع الجمهورية	٢٢ شارع الجمهورية	٩١٠٠٤٢	القاهرة
٦ ـ فرع عابدين	١٤ شارع الجمهورية	٩١٤٢٢٣	القاهرة
٧ ـ فرع الحسين	ميدان الحسين		القاهرة
٨ ـ فرع الجيزة	١ ميدان الجيزة	٨٩٤٣١١	القاهرة
٩ ـ فرع أسوان	السوق السياحي	٢٩٣٠	أسوان
١٠ ـ فرع الاسكندرية	٤٩ ش سعد زغلول	٢٥٩٢٨	الاسكندرية
١١ ـ فرع طنطا	ميدان الساعة	٢٥٤٤	طنطا
١٢ ـ فرع المنصورة	ميدان المحطة		المنصورة
١٣ ـ فرع أسيوط	شارع الجمهورية		أسيوط

مراكز ووكلاء الشركة خارج الجمهورية العربية المتحدة

١ ـ مركز توزيع الجزائر	شارع بن مهيدي العربي رقم ١١ مكرر	الجزائر
٢ ـ مركز توزيع لبنان	شارع دمشق	بيروت
٣ ـ مركز توزيع العراق	ميدان التحرير	بغداد
٤ ـ عبد الرحمن الكيالي	شارع ٢٩ آيار ـ دمشق	سوريا
٥ ـ الشركة العربية للتوزيع	ص ب رقم ١٢٢٨ بيروت	لبنان
٦ ـ قاسم الرجب	مكتبة المثنى ـ بغداد	العراق
٧ ـ رجا العيسى	وكالة التوزيع ـ عمان	الأردن
٨ ـ عبد العزيز العيسى	دار التوزيع ص ب ١٥٧١	الكويت
٩ ـ وكالة المطبوعات	الكويت	الكويت
١٠ ـ مكتب الوحدة العربية	شارع عمرو بن العاص ـ ليبيا	بنغازي
١١ ـ محمد بشير الفرجاني	٥٣ شارع عمرو بن العاص	طرابلس
١٢ ـ الشركة الوطنية للتوزيع		تونس
١٣ ـ وكالة الأهرام	شارع الرشيد	عدن
١٤ ـ المكتبة الوطنية	المنامة ـ الخليج العربي	البحرين
١٥ ـ مكتبة العروبة	ص ب ٤٢ و ٦٤	الدوحة
١٦ ـ عبد الله حسين الرستماني	المكتبة الأهلية ص ب ٢٦١	دبي/عمان
١٧ ـ المكتبة الحديثة	ص ب ٢٧	مسقط
١٨ ـ أحمد سعيد حداد	المكتبة الوطنية ص ب ٢٥	المكلا
١٩ ـ مكتبة دار العلم	شارع عبد المغني ميدان التحرير	صنعاء
٢٠ ـ علي ابراهيم بشر	ص ب ٨٣	أسمرة
٢١ ـ عبد الله قاسم الجزائري	ص ب ٧١٤	أديس أبابا
٢٢ ـ مكتبة سمير	ص ب ٩٣٦	مقديشيو
٢٣ ـ عبد الله غانم محمد	ص ب ٨٤٥	ممباسا
٢٤ ـ مكتب توزيع المطبوعات العربية	لندن	لندن
٢٥ ـ المكتب التجاري الشرقي	١٠ ش كمبحار ص ب ٢٠٠٥	سنغافورة
٢٦ ـ مكتبة مصر		الخرطوم
٢٧ ـ مكتبة الفجر		ود مدني
٢٨ ـ زكي جرجس مطيوس	ص ب رقم ١٥٥	الخرطوم
٢٩ ـ ابراهيم عبد القيوم	مكتبة القيوم ص ب ١٨٠	بور سودان
٣٠ ـ عوض الله محمود ديوره	مكتبة ديوره ص ب ٢٤	عطبرة
٣١ ـ عيسى عبد الله	المكتبة الوطنية ص ب ٢١٥	ود مدني
٣٢ ـ مصطفى صالح	ص ب ٤٤	كوستي

اسعار البيع للجمهور في الدول العربية

سوريا ٥٥ قرش سوري ـ لبنان ٥٥ قرش لبناني ـ الأردن ٥٥ فلس ـ العراق ٥٥ فلس ـ الكويت ٧٠ فلس ـ السودان ٥٥ مليم ـ ليبيا ٥٥ مليم ـ قطر ٧٥ درهم ـ البحرين ٧٥ فلس ـ عدن ١٠٠ سنت ـ أديس أبابا ٥٥ سنت ـ أسمرة ٥٥ سنت ـ الجزائر ٨٠ سنتيم